الملـــف

التصوف والعرفان

❖ **مقدمة في أصول التصوف والعرفان**

سيد ضياء الدين سجادي

❖ **القصص الرمزية في فلسفة ابن سينا**

حسين كُدازكر

❖ **الإشارة والعبارة، الحب والعقل**

د.سامي مكارم

❖ **تطور نظرية وحدة الوجود في العرفان الشيعي**

د.خنجر حمية

❖ **كلمة التصوف**

شهاب الدين السهروردي

الملـــف

مقدمة في أصول التصوف والعرفان

تأليف: سيد ضياء الدين سجادي

ترجمة: توفيق محمد

المحجة عندما أضاء نور الإسلام الأرض بالمعارف النيرة والحكمة البليغة الإلهية. شاع ذلك النور في جميع أنحاء العالم المظلم. وارتوى المسلمون والعلماء وطالبو الحقيقة والكمال الإنساني من هذه العين الصافية العلوم والمعارف المختلفة. وازداد الكثير حيرة من خلال التفكير في الجوانب المختلفة للتوحيد، ومعرفة الخالق، وطرق الوصول إلى الحقيقة وغاية الوجود ونهايته. لذلك إستعانوا بكلام الله المجيد والأحاديث والأقوال وسيرة الرسول الأكرم ﷺ والسابقين. وطوروا منهج الوصول إلى معرفة الخالق والمنهج المعرفي للسير والسلوك. وظهرت هذه المناهج من خلال مدارس عظيمة ووسيعة تعلم أسلوب الحركة والسير نحو الخالق من ناحية، وتكامل الإنسانية من ناحية أخرى. فأوجد هذا الفكر المنير وهذا السير والسلوك مناهج فكرية وعلمية سميت بالعرفان، وأوجدت طرق سير وسلوك سميت بالتصوف.

فكان أحدهم طريق ومنهج، والآخر فكر من خلال إدراك للنفس، ومعرفة للخالق، والوصول الى الحقيقة. فأحدهم طريق ومنهج للمريد والمراد، وللتعليم والتعلم. وللحال والأحوال. والآخر هو حصول الإدراك والإشراق والوصول إلى معنى الكمال.

وبشكل عام نجد للعرفان الإسلامي جوانب ايجابية وأصولية، فالعارف يفكر ويتحرك نحو الكمال ويقود الآخرين نحوه. ففي العرفان الإسلامي يظهر العلم، والدين، والتقوى، والإشراق، والعشق، وحب الاله، والكمال المطلق مع بعض وينتج عنه السعي والإجتهاد والسكر والهيجان والذوب في الله؟

لقد إستفاد المتصوفة والعرفاء الإيرانيون، وكبار علماء الإسلام من العلوم والمعارف الإسلامية، والقرآن الكريم، والأحاديث النبوية، ودونوا لنا كتبا للعرفان والتصوف. وتركوا لنا في آثارهم مباحثاً، وأقوالا وعبارات جميلة ولطيفة. ويعد الكثير منها خاصة

التي جاءت بصورة نثرية أو شعرية مدونة باللغة الفارسية من الأعمال العظيمة البارزة على الصعيد العلمي والأدبي والعرفاني في ايران والعالم.

إن هذا البحث الذي جاء تحت عنوان «مقدمة في أصول التصوف والعرفان»، هو رواية مختصرة عن أهم أفكار، وآثار متصوفة وعرفاء ايران والعالم الإسلامي وهو يهتم بالجوانب الايجابية للتصوف والعرفان، حتى تحصل الفائدة منه، ذكرنا في الهوامش كل المراجع التي إعتمدنا عليها.

ونأمل أن يكون هذا الجهد المتواضع خير نفع للمحققين وأهل الذوق والأدب والعرفان. ونعتذر إن كان في مطالبه نقص أو سهو.

تعريف التصوف

التصوف في العربية مصدر وهو على وزن تفعّل. فهو مصدر أشتق من إسم، ويعنى لبس الصوف مثل تقمص؛ فهي تعنى لبس القميص وتعنى كذلك مسكه وأخذه باليد. ومن بين المعاني المشتقة العديدة في تبيين ما أشير لمعناه «بالصوف»؛ وهو الأرجح من ناحية قواعد الصرف العربية.

لقد أشار أبو القاسم القشيري[1]، الصوفي والعارف المشهور في القرن الخامس هجري في الرسالة القشيرية (الباب الثاني والأربعون من الترجمة الفارسية):

وغلب هذا الإسم على هذه الطائفة. فيقال فلان صوفي أو جماعة متصوفة. الذي يجهد نفسه للوصول لذلك يقال له متصوف. ولا نجد لهذا إسم أو إشتقاق له في اللغة العربية. والظاهر أنه لقب مثل بقية الألقاب. أما القول أن هذا من الصوف،

(١) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، أصله من سلالة العرب الذين وردوا نواحي مدينة خراسان الإيرانية وسكنوها وهو قشيري الأب يعود نسبه إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وإليه ينسب كثير من العلماء الكبار. ولد في ربيع الأول سنة ٣٧٦ هـ وتعلم منذ صغره اللغة العربية والأدب وغيرها وسافر إلى خرسان لتولّي وظيفة حكومية لكن الله قدّر له غير ذلك. جاء في الحديث الشريف: أنّ الله يعجب من قوم يقادون إلى الجنّة بالسلاسل. فقد جاء يطلب الدنيا ولكنه أصبح فقيراً فقد حضر مجلس أبي علي الحسن بن علي النيسابوري الذي كان من أهل الكشف والكرامة وتأثرّ من كلامه غاية التأثر فلزم عتبة بابه وغابت عنه فكرة تولّي الوظيفة الحكومية. كان القشيري فقهياً بارعاً، أصولياً محققاً، متكلماً، محدّثاً، حافظاً، مفسّراً متفنناً، نحوياً لغوياً، أديباً كاتباً شاعراً.
توفي القشيري بعد أن بلغ من العمر ٩٢ سنة صبيحة يوم الأحد السادس عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ. (المترجم)

والتصوف هو لبس الصوف مثل تقمص القميص ولبسه، فهو الوجه الآخر للصوفية لأنهم لم يختصوا فقط بلبس الصوف[1].

ولا يرى القشيري أن هناك نسبة بين الصوفي والتصوف وبين «صفة» مسجد رسول الله ﷺ[2]، وبالتالي لا يقال بإنتساب الصوفي والتصوف من الناحية اللغوية إلى الصفاء والصف.

يقول أبو الحسن علي بن عثمان جلابي في كتابه «كشف المحجوب» الذي ألفه في القرن الخامس هجري والذي يعد من أقدم الكتب التي تناولت التصوف: قيل الكثير في التصوف وألفت فيه الكتب، فقالت جماعة: يعد الصوفي صوفيا عندما يلبس الصوف، وقال آخرون: نعت الصوفي بهذا الإسم لأنه يتولى أصحاب الصفة. وقال غيرهم: أن هذا الإسم مشتق من الصفا. ولكن جميع هذه المعاني من الناحية اللغوية بعيدة عن معنى التصوف[3]. مع هذا ذكر هذا البحث حول كلمة التصوف واشتقاقاتها بشكل مفصل في خلاصة «شرح تعرف»[4].

لقد ذكر الأستاذ الراحل جلال الدين هُمايى في مقدمة كتابه «مصباح الهداية» أن جميع الوجوه المشتقة كلها من كلمة «الصوفي». وإضافة لرفضه إنتساب كلمة الصوفي للصُفّة - كما ذكرنا ذلك من قبل - فقد كان يرفض كذلك إنتسابها إلى الصوفة وبنى صُوفة والصوفة التي تعني الوبر والأجزاء الصغيرة من الصوف التي يلقى بها جانبا، وكذلك الصوفان التي هي صورة أخرى للصوفة.

كذلك لا يعتقد بإشتقاق الصوفي من الصفا، والصَّفْوَة والصَّفُو والصفِّي، ويرفضها لأنها لا تخضع لقواعد الإشتقاق.

(١) القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، ج ١، مصر سنة ١٣٥٩ هش - ص ١٣٧ - ١٤٠.
- ترجمة الرسالة القشيرية، صححها بديع الزمان فروزانفر، انتشارات بنكاه - نُشريت ترجة الكتاب في سنة ١٣٤٥ هش - ٤٦٧ - ٤٦٨.
(٢) أصحاب الصُفّة هم سلمان وأبو ذر وصهيب وعمار وغيرهم من الذين كانوا يعيشون حياة الزهد والقناعة.
- والصُفّة تعني الظُلّة والبهو الواسع العالي السقف. وهو مكان مظلّل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول ويطلق عليهم كذلك أصحاب الصُفّة (المترجم).
(٣) هجويرى، علي بن عثمان جلاّبي، كشف المحجوب، تصحيح جوكوفسكى، اشراف محمد عباسي، انتشارات امير كبير، ١٣٣٦، ص ٩٧.
(٤) ر.كُ: خلاصة شرح تعرّف، حققه أحمد علي رجائي - انتشارات بنياد فرهنك ايران (مؤسسة الثقافة الإيرانية)، ١٣٤٩ هش، ص ٣٨ - ٤٦.

كذلك يرى أنه من الخطأ أن تكون كلمة الصوفي مشتقة من الصَّفواء جمع الصَّفاةُ، وتعنى الصخر الأملس الذي لا ينمو عليه النبات[١] أو أن تكون مشتقة من «مصافات» و«صوفانة»[٢]؛ التي تعنى النبات الصغير الحجم الذي لا قيمة له. وأخيرا فهو لا يرى أن تكون كذلك مشتقة من كلمة «صفّ». ويرى أن أصحها أن تكون كلمة الصوفي مشتقة من الصوف، ولأن المتصوفة كانوا يلبسون لباساً خشناً من الصوف أطلق عليهم هذا الإسم[٣].

وحسب الروايات والأحاديث المروية عن رسول ﷺ، أن لبْس الصوف هو كذلك من سنة الرسول الأكرم واتباع دينه، وهو ما ذكره السهروردي بسنده عن أنس بن مالك في كتابه «عوارف المعارف»: كان رسول الله يجيب دعوة العبد ويركب الحمار، ويلبس الصوف[٤].

وروى أن الإمام الصادق عليه السلام ارتدى لباس الصوف فقال له الراوي إن الناس لا يرغبون في رؤية من يلبس لباس الصوف. فرد عليه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: إن أبي وعلي بن الحسين كانا أثناء الصلاة يلبسان لباسا خشنا - من الصوف - ونحن نفعل كذلك[٥].

وفي كل الأحوال الصوف علامة على الزهد والتقوى وعدم الإعتناء بالدنيا، ويعد التصوف طريقة للزهد والقناعة، وترك الدنيا، وقد كان منذ القدم أسلوب ومنهج الزهاد والعابدين المتمسكين بالدين. وفي هذا النطاق يمكن الإشارة كذلك إلى رأي أبي ريحان البيروني[٦]، الذي لا يعتقد بأن كلمة «الصوفي» مشتقة من الصوف. فهو يرى أن كلمة «الصوفي» ليس لها أصول عربية بل هي تعود إلى صوفي Sophi وصوفياً sophia اليونانية التي تعنى الحكمة[٧].

(١) في قوله تعالى: «كمثل صفوان عليه ترابٌ» والصفوان هو الصخر الأملس الذي لا ينمو عليه نبات. (المترجم).
(٢) الصوفان نبات عشبي من الفصيلة المركبة يظهر له زغب يُشبه الصوف. (المترجم).
(٣) كاشياني عزالدين محمود، مصباح الهداية، حققه وقدم عليه جلال الدين هُمايى، ص ٦٣ و ٨٢.
(٤) نفس المرجع ص ٧٦،
(٥) نفس المرجع ص ٧٨.
(٦) البيروني (٩٣٧، ١٠٤٨)، من أصل فارسي، ولد بضاحية خوارزم. درس الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ والعلوم اليونانية والهندية وكانت بينه وبين ابن سينا علاقة وثيقة. من مؤلفاته: الآثار الباقية من القرون الخالية والقانون المسعودي في الهيئة والنجوم وتاريخ الهند. (المترجم).
(٧) نفس المرجع، ص ٦٥ و ٦٦.

لكن لا يمكن لنا أن نؤيد رأي أبي ريحان البيروني. لأن كلمة الصوفي ليس لها ارتباط - من حيث المعنى - بصوفيا Sophiaالتي تعني الحكمة والعلم[١].

بعد أن يذكر الأستاذ جلال الدين هُمايى الأقوال المختلفة في هذا الموضوع ويشرحها، يشير إلى احتمال أن يكون أهل فارس هم أول من أطلق مصطلح الصوفي على الزهاد، والذين يرتدون لباس الصوف. ومن ثم دخل هذا المصطلح اللغة العربية. ويحتمل كذلك أن أول من وضع هذه الكنية للمتصوفة إيرانيو البصرة والكوفة، وشاع هذا اللقب إلى بقية الممالك العربية الأخرى فاشتق منه تعابير أخرى مختلفة وخارجة عن اللغة العربية[٢].

وجاء في كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون»: «أنه جاء في «توضيح المذاهب» ما يلي: في اللغة التصوف يعني ارتداء الصوف وهذا نتيجة الزهد وترك الدنيا، وفي نظر أهل العرفان تطهير القلب من محبة ما سوى الخالق وتقويم الظاهر من حيث العمل والإعتقاد بالتكليف أو المأمور فيه، والإبتعاد عن المنهى عنه، والإلتزام بما قاله رسول الله ﷺ، فهؤلاء الجماعة من المتصوفة المحقة. وتوجد جماعات أخرى متصوفة باطلة، يحسبون أنفسهم من الصوفية؛ ولكنهم ليسوا من الصوفية الحقة وهم عدة فرق...[٣].

أما أول من لقب بالصوفي وأشتهر به أبو الهاشم الصوفي (المتوفي سنة ١٥٠هق) والذي كان معاصرا لسفيان الثوري (المتوفى سنة ١٦١ هق)، وإبراهيم الأدهم (المتوفي سنة ١٦٢ هق)[٤].

إذا ابتداء من القرن الثاني هجري إنتشر مصطلح الصوفي والصوفية في البلاد الإسلامية، ولفت نحوه أنظار الفقهاء والمتشرعين والحكماء والفلاسفة. فيشير ابن خلدون في مقدمته إلى أن التصوف بعنوانه الخاص قد ظهر في القرن الثاني هجري[٥].

(١) Sophia هي الحكمة من حيث أنها تأملات عقلية نظرية والصوفية حكمة من حيث أنها تأملات قلبية باطنية يصل لها السالك ليس عن طريق إمعان النظر بل عن طريق الرياضة الروحية. (المترجم).
(٢) كاشاني، عزالدين محمود، مصباح الهداية - ص ٨١ و ٨٢.
(٣) التهانوى، محمد علي بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون، حققه محمد وجيه عبد الغني وغلام قادر، جلدين، طبعة الهند، انتشارات كتابفروشى خيام، ١٣٤٦ هش، ج١، ص ٨٤١.
(٤) مصباح الهداية، مقدمة، ص ٨٦.
(٥) ابن خلدون، مقدمة، ترجمة محمد بروين كنابادى، ج ٢، انتشارات تهران، ١٣٤٧ هش، ص ٩٧٦.

ويرى البعض الآخر أن مصطلح الصوفية يعود إلى أوائل القرن الثاني هجري في زمان الحسن البصري (المتوفي سنة ١١٠ هق)، فذكروا أن البصري أول من استعمل كلمة الصوفي عندما قال: «رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ»[١].

أما الآن فيمكن لنا أن نتطرق إلى وجهة نظر الصوفية فيما يتعلق بالتصوف والصوفي وما تقوله حول ذلك:

يقول أبو سعيد أبو الخير: التصوف شيئان: «النظر إلى اتجاه واحد، والعيش على طريقة واحدة»[٢]، وقال: «كذلك التصوف اسم واقع فإذا تمَّ فهو الله»[٣].

ويقول ذو النون المصري: «الصوفي هو الذي يكون في نطقه، بيان لحقائق نفسه، وفي سكوته، يكون فعله مثال عن حاله، وعندما تقطع علائقه - الدنيوية - يصبح ناطقا»[٤].

ويقول أبو الحسن النوري: «التصوف هو الإبتعاد وترك العلائق النفسانية. فالمتصوفة هم الذين أطلقوا أنفسهم من كدر البشرية وتخلصوا من الآفات النفسانية وهواها. وذلك من أجل أن يكونوا في مقدمة الصفّ وفي أعلى عليين مطمئنين إلى جانب الحق فارين من غيره»...[٥].

يقول الشبلي[٦]: «الصوفي هو الذي لا يرى شيئا في العالمين[٧] غير الله»[٨] ويقول الجنيد[٩] «بني التصوف على ثمانية خصال: السخاء، والرضا، والصبر، والإشارة،

(١) مصباح الهداية، المقدمة، ص ٨٨.
(٢) محمد بن منور، أسرار التوحيد، تصحيح ذبيح الله صفا، انتشارات امير كبير، ص ٢٩٧، ٣٠٩.
(٣) نفس المرجع، ص ٢٩٨.
يعني أن غاية وكمال التصوف هو الله، فهو المكان الذي يكون فيه الأنا والغير واحداً، ولا معنى لكليهما مستقل عن الآخر. (المترجم).
(٤) كشف المحجوب، ص ٤١.
- يصبح ناطقاً يعني نطقه وكلامه هو كلام الخالق وإفاضاته. وهو ما نجده في قول الحلاج «أنا الحق». (المترجم).
(٥) نفس المرجع، ص ٤٢.
(٦) الشبلي محمد بدر الدين أبو عبد الله: (٩٤٦م - ٩٨٦م) من كبار الصوفية. كان والياً في دنباوند ثم فارق الدنيا وهو في الأربعين من عمره: فصار من شيوخ الصوفية. أصله من خراسان الإيرانية ونسبته إلى قرية شبلة. ولد بسمراء وتوفي ببغداد. وفي إسمه اختلاف كبير. (المترجم).
(٧) عالم الدنيا والآخرة. (المترجم).
(٨) كشف المحجوب، م. س، ص ٦٦.
(٩) الجُنيد بن محمد (أبو القاسم الزجاج القواريري) (ت ٩١٠م) صوفي وزاهد بغدادي. ولد وتوفي ببغداد. تلقى العلوم الفقهية عن سفيان الثوري والعلوم الصوفية عن خاله السري السقطي. سيد الطريقة الصوفية. حجّ ثلاثين حجة ماشياً. اتباعه ومريدوه لا يحصيهم العدد وهم منتشرون في أنحاء العالم. (المترجم).

والغربة وإرتداء الصوف والسياحة[١]، والفقر، والإقتداء بالأنبياء الثمانية: سخاء النبي إبراهيم عليه السلام، ورضا النبي إسحاق عليه السلام، وصبر النبي أيوب عليه السلام، وإشارة النبي زكريا عليه السلام، وغربة النبي يحيى عليه السلام، وإرتداء صوف النبي موسى عليه السلام، وسياحة النبي عيسى عليه السلام وفقر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله»[٢].

ويقول الجنيد كذلك: «نحن لم نحصل على التصوف من القيل والقال، بل حصلنا عليه من الجوع، والإبتعاد عن الآمال والإنقطاع عن كل ما كنا نحب.

بشكل عام قيل أكثر من ألف قول في باب التصوف فكان نهاية الأمر الرجوع إلى القول بـ: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق (أو أنفس الخلائق)»[٣].

وجاء في كشاف اصطلاحات الفنون حول الصوفي: الصوفي عند أهل التصوف هو الفاني بنفسه، الباقي بنفسه. باق بالله تعالى، مستخلص من الطبايع، متصل بحقيقة الحقائق، والمتصوف هو الذي يجاهد لطلب هذه الدرجة والمستصوف هو الذي يشبه نفسه بالصوفي والمتصوف؛ وذلك لطلب الجاه والدنيا فهو ليس بالصوفي، أو المتصوف الحقيقي»[٤].

قبل هذا كنا قد رفضنا نظر أبي ريحان البيروني فيما يتعلق بنسبة الصوفي إلى صوفيا Sophia اليونانية والتي تعني الحكمة والتعقل. والآن نقول أن نشأة التصوف والعرفان الإسلامي، هي نشأة إسلامية، ولا توجد له أصول لا في ايران قبل الإسلام، ولا في الديانات الهندية، والبوذية، والمانوية، واليونانية. على أن الرياضات الروحية وكبح النفس والإبتعاد عن العلائق الدنيوية، كانت موجودة في الفلسفة الهندية. وكذلك نجد وحدة الوجود والأفكار الصوفية الأخرى في عقائد أفلوطين المحدثة. ونرى في الغنوصية نظم عرفانية وإشراقية. ونجد في العرفان المسيحي ما يناظره في العرفان الإسلامي.

كذلك يوجد الكثير من المشتركات بين الفلسفة الإشراقية للشيخ شهاب الدين

(١) السفر (المترجم).
(٢) نقلت الصوفية في كتبها حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيه: الفقر فخري وبه أفتخر به. (المترجم).
(٣) كشف المحجوب، ص ٤٥.
(٤) كشاف اصطلاحات الفنون، ج١، ص ٨٣٩، كشف المحجوب، ص ٤٠.

السهروردي المعروف بشيخ الإشراق[1] والفلسفة الإيرانية القديمة وآراء ونظريات الحكيم خسرواني والحكيم بهلواني.

فقد جاءت الكثير من التعابير والمصطلحات الخاصة بهم في حكمة الإشراق وسنتناول هذا الموضوع في مكانه المناسب. يجب أن ندرك أن الدين الإسلامي المقدس هو نظام معتدل وبعيد عن الإفراط والتفريط الذي يكون في غير محله.لهذا فهو يخالف مرتاضي الهند[2]، ورهبان المسيحية، والسلوكيات التي تخالف العقل السليم والإعتدال.

فمن الناحية النظرية يعود التصوف والعرفان الإسلامي إلى القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وأقوال المشايخ، وأتباع الدين.

ومن الناحية العلمية يعود إلى سيرة الرسول الأكرم ﷺ وسيرة أصحابه، وأتباعه، وسيرة الأئمة عليهم السلام، وعلماء الدين. تعطى الصوفية والعرفاء أهمية كبيرة للقرآن الكريم والأحاديث النبوية والروايات الدينية. فقد ملئت كتبهم بالأحاديث والروايات ويستندون بها عند بيان وشرح أي موضوع، مثلما أورد الصوفي المعروف جنيد بقوله: لا تقدموا بشخص لم يحفظ القرآن ولم يكتب حديث، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة. وقال أيضا: علمنا مقيد بحديث رسول الله ﷺ[3].

وتبدأ أغلب المباحث في الكتب الصوفية بآية من القرآن الكريم، ثم حديث عن الرسول الأكرم ﷺ. مثال ذلك ما نجده في بيان إثبات العلم في كتاب «كشف المحجوب». فهو يبدأ بقوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[4]. ثم رواية عن الرسول الأكرم ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[5] وفي باب التوبة من الرسالة القشيرية يبدأ بقوله تعالى: ﴿توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾(٦). ثم حديث

(١) السُهروردي: (١١٥٤م – ١١٩١م) فيلسوف اشراقي كبير، ولد بسُهرورد الإيرانية ودرس في مَراغة. أتهم بالخروج على الدين. استشهد في قلعة حلب له كتاب «حكمة الإشراق» و «هياكل النور». (المترجم).
(٢) الذين يمارسون الرياضات الروحية القاسية (المترجم).
(٣) أبو علي عثمان، ترجمه رسالة قشيرية، حققه بديع الزمان فروزانفر، انتشارات بنكاه. ١٣٤٥ هش، ص ٥٢.
(٤) فاطر: ٢٨.
(٥) كشف المحجوب، ص ١١،
(٦) النور: ٣١.

عن الرسول الأكرم ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1]. وفي «مرصاد العباد» تبدأ جميع فصوله بآية قرآنية وحديث نبوي. وقد جاء في هذا الكتاب مئتان وحديثان نبويان، وفي «كشف المحجوب» للهجويري ما يقارب على مئة وخمسين حديثا، وفي «حديقة الحقيقة» لسنايى مئتان وثمانون حديثا وفي «مثنوي مولوى»[2] ما يقارب ست مئة وتسعون حديثا.

الفرق بين التصوف والعرفان

يوجد فرق من ناحية المعنى لهذين المصطلحين اللذين يأتيان غالبا بشكل مترادف. فالتصوف منهج وطريقة زاهدة، مبتنية على أساس الشرع وتزكية النفس، والإعراض عن الدنيا من أجل الوصول إلى الحق تبارك وتعالى والسير بإتجاه الكمال.

أما العرفان فهو مذهب فكري، وفلسفي، متعالى، وعميق، يسعى إلى معرفة الحق تبارك وتعالى ومعرفة حقائق الأمور، وأسرار العلوم، وطريقة هذا ليس منهج الفلاسفة والحكماء؛ بل هو طريقة اتباع منهج الإشراق والكشف والشهود.

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا[3] في كتابه «الإشارات» حول الزاهد والعابد والعارف: «المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص بإسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوها يخص بإسم العابد، والمتصرّف بفكره إلى قُدس الجبروت مستديما بشروق نور الحق في سره يخص بإسم العارف، وقد يتركب بعض هذه مع بعض»[4].

إذا يكون العارف أعلى مقاما ومرتبة من الصوفي. فكل عارف هو صوفي، وليس كل

(١) رسالة قشيرية، متن عربي، ص ٤٩، الترجمة الفارسية، ص ١٣٦.
(٢) مثنوى: نوع من النظم الفارسي ترد فيه القصيدة ببحر واحد أمّ القافية فكلّ بيت له قافية خاصّة مع الشطر الأولى – ويطلق مثنوى كذلك على اسم ديوان مولانا جلال الدين الرومي (المترجم).
(٣) ابن سينا: عُرف بالشيخ الرئيس ابن سينا. ولد في أخشنة قرب مدينة بخارى التاجيكية وتوفي في مدينة همدان الإيرانية. من كبار فلاسفة الإسلام وأطبائهم، تعمّق في درس فلسفة أرسطو وتأثر أيضاً بالأفلاطونية المحدثة. له ميول صوفية عميقة برزت في الحكمة المشرقية وهي عبارة عن فلسفته الشخصية. من مؤلفاته: القانون في الطب والإشارات والتنهيبات والنجاة. له في النفس القصيدة المشهورة ومطلعها:
هبطت اليك من المحل الأرفع ورقـــاء ذات تعـــزّز وتمنـــع (المترجم)
(٤) همايى، دلال الدين، مولوى نامه، انتشارات شورای عالى فرهنك وهنر، ج١، ١٣٥٥هش، النمط التاسع، ص٤٣٠.

صوفي بعارف. فعرفاء مثل مولوي وحافظ يرون أن الصوفي مبتدي، وقاصر النظر، ويهتم فقط بظواهر التصوف، مثل اللباس، والخرقة، وما يماثلها، ويعتبرونه بسيط الفكر ومتعصب وقاصر النظر. أما العارف فهو عالم بصير باطنه ملؤه الصفاء، وقلبه ملؤه الإشراق، فقد أشرقت وتلألأت روحه بنور الحكمة الإلهية.

لقد عرض مولانا جلال الدين[1] في كتابه «المثنوي» قصصا حول الصوفية البسطاء الذين يهتمون بظواهر الأشياء، ومن هذه القصص قصة ذلك الصوفي الذي نزل ضيفا على إحدى التكايا فلما أحضروا الطعام تذكر حماره، فقال للخادم: إذهب إلى الحمار وأطعمه كذا وضع له كذا... وهكذا فانزعج الخادم وقال:

أستجير بالله من كلامك الزائد فإن هذه هي مهنتي منذ زمن

وفي قصة أخرى، تكلم عن الصوفي الذي أودع حماره عند خادم التكية، ولكن الصوفية باعوه وأقاموا حفل ضيافة وسماع[2] وبدأوا غناءهم بقولهم «خربرفت وخربرفت» يعني «راح الحمار.. راح الحمار»..[3].

كان مصطلح العارف رائجاً خلال القرن الثالث هجري. فقد كان بايزيد بسطامي يستعمل مصطلح العارف مكان الصوفي. فقد قال كمال العارف هو أن يتبرأ من المال والمنال، وإذا أردت أن تفديه بكلّ ما في هذه الدنيا والآخرة من أجل أن تكسب صداقته، كان هذا الأمر أقل ما يمكن أن تفعله تجاهه[4].

وقال أيضا: العارف لا يرى إلا المعروف، والعالم لا يجلس إلا مع العالم، فيقول العالم ماذا أفعل، ويقول العارف ماذا يفعل[5].

يسعى العارف من خلال الكشف والشهود والإشراق للوصول إلى الحقائق والتمكن من العلوم الظاهرة والباطنة، لذلك هو يقول إن الذي يدركه العالم، الحكيم، والفيلسوف، بالعقل والمنطق والإستدلال يراه العارف من خلال الإشراق.

(١) جلال الدين الرومي: (١٢٠٧م - ١٢٧٣م) شاعر وصوفي فارسي من الكبار، صاحب الطريقة المولوية. ولد في بلخ (ايران) تعلّم على أبيه بهاء الدين. ارتحل إلى بغداد ومكة والشام ثم استقرّ في قونية وتوفي بها. له المثنوي وهي منظومة صوفية شهيرة. (المترجم).

(٢) السماع هو رقص خاص تقوم به الصوفية (المترجم).

(٣) مثنوى، دفتر دوم، طبعة علاء الدولة، ص ١١٠ - ١١٦.

(٤) عطار، فريد الدين محمود، تذكرة الأولياء، حققه محمد استعلامي، انتشارات زوار، ١٣٤٦، ص ١٩٢.

(٥) نفس المرجع، ص ١٩٣.

وفي هذا الإطار نجد من المناسب أن نذكر حكاية لقاء أبو سعيد أبو الخير مع أبي علي ابن سينا والتي جاءت في كتاب «أسرار التوحيد»:

في يوم من الأيام كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه الزكية في أحد مجالس نيشابور[1] يخطب، فخرج عليه من التكية الشيخ ابن سينا. فعلى الرغم من أنهما كانا يتكاتبان من قبل إلا أنهما لم يتقابلا. فعندما دخل عليه ابن سينا إلتفت نحوه الشيخ أبو سعيد وقال: جاء الحكيم... جلس ابن سينا إلى أن أنهى أبو سعيد خطبته وانفض من بعده المجلس.

ثم اتجها نحو البيت. دخل ابن سينا بيته وأغلق من ثم الباب واختليا ثلاثة أيام كاملة لم يحس عليهما أحدا... بعد ثلاثة أيام غادر ابن سينا البيت، فسأله تلامذته كيف وجدت الشيخ أبا سعيد؟ قال كل ما أعلمه هو يراه. وسأل تلامذة أبو سعيد كيف وجدت الشيخ الرئيس ابن سينا؟ قال: كل ما أراه يعلمه[2].

وجاء أن ابن سينا أصبح بعد ذلك يخلص للشيخ أبي سعيد أبي الخير، لأنه رأى منه العديد من الكرامات، وأصبح يكن له احتراما كبيرا وكتب حول العرفاء في كل كتاب ألفه مثل كتاب «الإشارات» الذي خصص فيه فصلا كاملا في إثبات كرامات الأولياء وحالات المتصوفة.

على الرغم من أن العرفان والمعرفة من حيث المعنى قريبان من بعضهما البعض إلا أنه يوجد فرق بينهما، كنا قد بحثنا هذا الموضوع بشكل مطول في كتابنا «سيرى دارنديشه وشناخت» (نظرة في العلم والمعرفة)، وخصصنا فصلا يبحث في معرفة الله الذي هو غاية سير وسلوك العارف وكمال نفسه.

ويجب أن لا يفوتنا القول بأن الصوفي والدرويش أخذا فيما بعد على أنهما مترادفان، وأصبحت تطلق صفات وخصوصيات الصوفي والعارف على الدرويش. وكان يشتبه التصور نحوهم في بعض الأحيان. فقد كان بعض الدراويش من النوع الذي لا يبالي، وغير مقيد بشيء، فنسبت أفعالهم للصوفية وسنتعرض لهذا الموضوع في بحثنا لخِرَقِ الصوفية[3].

(١) مدينة في ايران تبعد عن تهران باتجاه الشرق وعن مشهد باتجاه الجنوب (المترجم).

(٢) محمد بن منور، اسرار التوحيد، حققه ذبيح الله صفا، انتشارات امير كبير، ص ٢٠٩ - ٢١١، وتحقيق أحمد بهمنيار، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) الخِرْقة: القطعة من الثوب الممزق (المترجم).

يقول الشاعر «سعدي»[1] في ديوانه[2]: «ظاهر الدرويش لباس بال خلق، ورأس محلق وحقيقته قلب حي ونفس ميتة».

فطريق الدراويش هو الذكر، والشكر، والخدمة، والطاعة، والإيثار، والقناعة، والتوحيد، والتوكل، والتسليم، والتحمل، وكل من هو متصف بذلك فهو من حقيقة الدراويش حتى إذا كان لباسه جديد وثمين[3].

من بين مئات الأحاديث التي جاءت في كتب الصوفية، حديثان جاء ذكرهما في جميع الكتب الصوفية، يتعلق أحدهما بمعرفة الخالق وهو ما يرتبط بالغاية والهدف النهائي للعرفاء، في سيرهم وسلوكهم. ويتعلق الآخر بمعرفة النفس التي هي مقدمة لمعرفة الخالق.

والحديث الأول هو حديث قدسي جاء فيه أن الله قال: «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف».

وجاء في كتاب نجم الدين الرازي «منارات السائرين» أن داود عليه السلام قال: يا رب لماذا خلقت الخلق؟ قال كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف[4].

لقد ذكر هذا الحديث في جميع كتب الصوفية، ولكن مؤلف كتاب «اللؤلؤ المرصوع» يقول أن ابن تيمية: «لا يعد هذا الحديث من الأحاديث النبوية».

وجاء في كتاب كشف الحقائق لعزيز الدين نسفى: «... فهذه هي منزلة وشأن الإنسان من ناحية أنه يدرك نفسه ويعرف خالقه. والإنسان على غير بقية المخلوقات، هو مقصود الخالق، أما بقية المخلوقات فهي تابعة له. فالغاية من الخِلْقَة هو أن يعرف الخالق... وداود كان يناجي ربه: «إلهي لماذا خلقت الخلق؟ قال كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف. والإنسان هو الذي يتعرف إلى خالقه»[5].

(١) سعدي الشيرازي: (١١٩٣م - ١٢٩١م) شاعر وناثر إيراني كبير. ولد في مدينة شيراز الإيرانية. تعلّم في نظامية بغداد وكان من مريدي عبد القادر الجيلاني. له بوستان وغلستان (كلستان) والديوان وقد نقلت إلى لغات عديدة. (المترجم).

(٢) ديوانه تحت عنوان غلستان (كلستان) يعني روضة حديقة الأزهار (المترجم).

(٣) سعدي، كلستان، حققه عبد العظيم قريب، طبعة، ولى، ناشر مطبعة علمى، ١٣١٠، ص ٩٣.

(٤) فروزانفر، بديع الزمان، أحاديث مثنوى، انتشارات دانكشاه تهران ١٣٦٦، ص٢٩.

(٥) نسفي، عز الدين: «كشف الحقائق، حققه أحمد مهدوي، انتشارات بنكاه» ترجمة ونشر كتاب، ١٣٤٤ هش، ص١٥١.

أما الحديث الثاني المعروف فهو يرتبط بمعرفة النفس وجاء فيه: «من عرف نفسه فقد عرف ربه[1]. وفي كشف المحجوب «هجويرى» جاء أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من عرف نفسه فقد عرف ربه يعني من عرف نفسه بالفناء فقد عرف ربه بالبقاء. ويقال من عرف نفسه بالعبودية فقد عرف ربه بالربوبية[2] ونسب هذا الحديث كذلك إلى الإمام علي عليه السلام.

وجاء في «مرصاد العباد» أن معرفة النفس تستلزم معرفة الخلق. فمن عرف نفسه فقد عرف ربه[3].

ويقول شهاب الدين السهروردي في الفصل الخامس من رسالة «بستان القلوب»: «إعلم أن معرفة الخالق متوقفة على معرفة النفس. فقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: من عرف نفسه فقد عرف ربه... واعلم أن جميع الخلق متفق النظر على أن معرفة الخالق تعالى واجبة على الخاص والعام؛ ولأن معرفة الله تعالى التي هي واجبة متوقفة على معرفة النفس، إذا معرفة النفس كذلك واجبة. فالوصول إلى معرفة الحق تعالى غير ميسرة إلا بمعرفة النفس»[4]. ومعرفة النفس هو من أجل الجهاد ضدها. فقد جاء في الحديث الشريف: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[5]. وورد في المجال عينه هذا الحديث: «قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. مجاهدة العبد هواه»[6].

وورد هذا الحديث بصور مختلفة[7] من ذلك قوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وكان هذا عند عودة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من إحدى المعارك فسئل ما هو الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس.

(١) المجلسي: بحار الأنوار ج ٢٢ ص ٣٢ رواية ٢٢ باب ٩.

(٢) كشف المحجوب، ص٢٤٧.

(٣) مرصاد العباد، ص١٧٣.

(٤) مجموعة آثار شيخ اشراق، حققه سيد حسين نصر، انتشارات دانكل ايران وفرانسه، ١٣٤٨ هش، ص ٢٤٧.

(٥) أحاديث مثنوى، ص٩.

(٦) كنوز الحقايق، حاشية جامع صغير، طبعة مصر، ص ٩٠.
السيوطي، جلال الدين، تحقيق أحمد سعد علي، طبعة ٦. القاهرة ١٣٧٢ هق، ج٢، ص ٨٥.

(٧) أحاديث مثنوى، ص ١٤ و١٥.

الشريعة والطريقة والحقيقة

جاء عند الصوفية أن الرسول ﷺ قال: «الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي والمعرفة رأس مالي». وذكر هذا الحديث مفصلا في «كتاب غوالي وحدايق» وطبق هذا الحديث تبدأ الشريعة المقدسة المحمدية بحركة نحو الكمال والمعنويات وتزكية النفس. ومن خلال القيام بأحكام الشرع والطريقة والاخلاص. والعبادة تكون بدايات السير والسلوك العرفانية وبدايات كشف الحقيقة.

ويرى بعض الباحثين أن الشريعة والطريقة والحقيقة؛ هي أسماء صادقة لحقيقة واحدة، وهي حقيقة الشرع المحمدي ﷺ جاءت باعتبارات مختلفة لهذا تؤكد الصوفية والعرفاء من السنة والشيعة على القيام بالأعمال الشرعية من الفرائض والمستحبات الدينية. وخلاف ما يقول به مخالفو التصوف، لا تؤمن الصوفية والعرفاء الواقعيون بترك الأعمال الدينية. وأقوالهم شاهدة على ذلك. مثلما أشار جنيد البغدادي حول التصوف إذ يقول: «يتطلب هذا الطريق أن يأخذ الشخص كتاب الله بيده اليمنى، وسنة الرسول الأكرم ﷺ بيده اليسرى، ويطوى طريقه - بين نور الشمعتين حتى لا يقع في الشبهة نتيجة البعد، ولا يقع في البدعة نتيجة الظلام»[1]. ويرى الإمام محمد الغزالي في كتابه «كيمياء السعادة» أن علامة المسلم أربعة: معرفة النفس، ومعرفة الخالق، ومعرفة الدنيا، ومعرفة الآخرة. ويقول أيضا اركان المسلم أربعة:

١ - العبادات (الإعتقاد الصحيح، القيام بأحكام الشرع والصيام والصلاة والحج والخمس والزكاة).

٢ - المعاملات (أداب الكسب، والتجارة والزواج والتعامل مع الخلق..)

٣ - المهلكات (الرياضة الروحية وكبح الشهوات والجوع... حب الجاه وحب الرياء أثناء العبادة، التكبر...)

٤ - المنجيات (التوبة، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء...)[2].

وبهذا الشكل يشرح «عين القضاة الهمداني» الصوفي والعارف المعروف في كتابه «التمهيدات» أركان الإسلام الخمس. فيقول: «بني الإسلام على خمس: الشهادة،

(١) شيرازي، (نائب الصدر)، محمد معصوم، طرائق الحقائق حققه محمد جعفر، ناشر كتابفروشى باراني، ١٣٣٩ هش - ج ١، ص ٥٦.

(٢) غزالي محمد، كيمياي سعادت، حققه أحمد آرام، في جزئين، ج١، ص ٤ - ١٠.

والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج»[1]. وقد قسم الشيخ «واعظ كاشفي سبزواري» كتابه «لب لباب مثنوى» الذي ألفه في القرن التاسع الهجري إلى ثلاث عيون:

١ - العين الأولى في بيان أصول الشريعة وهي في سبعة أنهر من ضمنها الايمان، والشهادة، والأحكام الشرعية[2].

٢ - العين الثانية في بيان أسرار الطريقة وهي في ستة أنهر من ضمنها التوبة، والجوع، والصبر، والجذبة[3].

٣ - العين الثالثة في بيان لوامع أنوار الحقيقة وهي في ثلاث أنهر من ضمنها العشق، والمشاهدة، والقرب، والوصل، والفناء والبقاء»[4].

يقول القشيري في موضوع الشريعة والحقيقة: «الشريعة هي أمر الإلزام بالطاعة والحقيقة هي مشاهدة الربوبية، فالشريعة لا تُقبل إذا كانت غير مؤيدة ولا تحصل الحقيقة من لا شيء ان لم تكن متصلة بالشريعة. والشريعة جاءت بإرادة الحق تبارك وتعالى. فالحقيقة هي الإطلاع على أفعال الحق. والشريعة هي عبادة وطاعة الحق، فالحقيقة رؤية الحق»[5] أما الطريقة فهي منهج سير وسلوك الصوفية والعرفاء ولها شروطها الخاصة وسنتطرق لهذا في الفصول القادمة.

تعرضت الصوفية كثيرا في كتب الشعر والنثر إلى الطريقة وتكلمت عنها فقد كان سعدي الشيرازي الذي كان مريدا للشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله السهروردي، يتكلم في إغلب كتابه البوستان حول الطريقة.

وجاء في شرح كلشن راز[6] (روضة الأسرار): إن المراد من الطريقة منهجا خاصا يتبعه سالكو طريق الحق، مثل ترك الدنيا، وإدامة الذكر، والتوجه نحو الخالق، والتبتل، والانزواء، والبقاء على الطهارة، والوضوء، والصدق، والإخلاص، وغير ذلك.

(١) عين القضاة، التميهدات، حققه عفيف عسيران، انتشارات دانشكاه تهرا، ١٣٤١، ص ٦٤ و٩٦.

(٢) واعظ كاشفى سبزوارى حسين، لب لباب مثوى، حققه سعيد نفيسي، انتشارات بنكاه افشارى، ١٣١٩ هش، ص ٢٣ - ١٠٤.

(٣) نفس المرجع، ص ١٠٧ - ٣٧٢.

(٤) نفس المرجع، ص ٣٧٣ - ٤٣٧.

(٥) ترجمة رسالة قشيريه، ص١٣٧.
المتن العربي، ص ٤٦.

(٦) بالفارسية: كلشن راز. (المترجم).

والشريعة هي الأحكام الظاهرية، فهي بمنزلة القشور والطريقة لبها والطريقة هي السير من الحادث إلى القديم.

فعندما يصل من مقام الفناء إلى مقام البقاء، يقال له قد وصل إلى الحقيقة من الطريقة[1]. وجاء في الفصل الأول من «الإنسان الكامل» للصوفي المعروف عزالدين نسفي (القرن السابع) حول الشريعة والطريقة والحقيقة: إعلم أعزك الله في الدارين أن الشريعة أقوال الأنبياء والطريقة أفعال الأنبياء والحقيقة أحوال الأنبياء. فالشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة أحوالي. فالسالك يجب عليه ابتداء أن يتعلم ما يجب عليه من علوم الشريعة، ويعمل ما يجب عليه من أعمال الطريقة، ويأتي بها، إلى أن تنكشف له أنوار الحقيقة بمقدار سعيه وعمله[2].

وتعتقد الصوفية بثلاثة مراحل للسير والسلوك من أجل الوصول إلى الكمال والحقيقة وتجلى نور الحق في قلب السالك وهي:

١ - مرحلة التخلية (التخلّي).

٢ - مرحلة التحلية (التحلّي).

٣ - مرحلة التجلية (التجلّي).

والتخلية، خلو الباطن من السوء وجميع الأمور التي تمنع الإنسان من الخالق. والتحلية، تحلي النفس بالصفات الحميدة، والفضائل الإنسانية. والتجلية، تجلي الخالق. وإشراق نور الحق في قلب السالك والصوفي والعارف.

وفي «كشف المحجوب» يقول الهجويري حول التجلي: «التجلي هو تأثير أنوار الحق بحكم إقبالها على قلوب السالكين الذين هم أهل لذلك»[3].

والتجلي على ثلاثة أقسام:

١ - تجلي الذات.

٢ - تجلي الصفات.

٣ - تجلي الأفعال.

(١) سجادى، سيد جعفر، فرهنك ومصطلحات عرفان الطبقة الأولى انتشارات كتابفروشى بوذر جمهرى، مصطفوى ١٣٣٩ هش، ص٢٦٠.

(٢) نسفى، عزالدين، الإنسان الكامل، حققه ماريزان موله. انتشارات أنستيتو ايران وفرانسه،١٣٥٠هـ.ش، ص٣.

(٣) مرصاد العباد، ص ٣١٤.

جاء في مرصاد العباد أن النبي ﷺ قال: إن الله خلق آدم فتجلى فيه. فاعلم أن التجلي عبارة عن ظهور الذات والصفات الألوهية. وفي الكتاب ذاته قسم التجلي إلى ثلاثة أقسام: تجلي الذات وتجلي الصفات وتجلي الأفعال. وأول التجليات التي تظهر على السالك في مقامات سلوكه هو تجلي الأفعال ثم تجلي الصفات ثم تجلي الذات... وقد بحثت هذه التجليات الثلاث بشكل مفصل في مصباح الهداية[1].

في نهاية هذا الفصل لا بد من الاشارة إلى نقطة هامة وهي أن العرفان والتصوف الإسلامي بشكل عام كانت له جوانب ايجابية وبنيوية. فقد كان المتصوفة والعرفاء بشكل خاص ابتداء من القرن الثالث إلى القرن التاسع الهجري، يبذلون سعيهم وجهدهم من أجل كسب العلم، والسفر، وملاقات الناس، والوعظ، والتدريس، والإرشاد. كذلك كانوا يهتمون بالتكيات، ويتابعون أمور أقوامهم من معاشهم، ومعادهم. وكانوا يجاهدون ضد ظلم، وجور الحكام، ويسعون إلى التقليل من التعصبات، والعداوات، واختلافات الفرق والأقوام وكانوا يدعون للمحبة والأخوة.

ومن جانب آخر فقد بذل أكثرهم جهدا كبيرا في تأليف وتصنيف الكتب والرسالات والمنظومات، وتركوا لنا آثارا مهمة في العرفان والتصوف، فكانت منها أعمال عظيمة أدبية، وعرفانية، وفكرية تعد من الذخائر النادرة للثقافة والفكر البشري والتراث الإسلامي. وسنشير لهذا الأمر في موضعه المناسب.

لقد ترك بعض كبار الصوفية والعرفاء أمثال شيخ الاشراق وعين القضاة الهمداني وغيرهما أعمالاً خالدة ذا قيمة كبيرة رغم أنهم لم يعمروا كثيرا وذلك من خلال تأييد الخالق لهم وإشراق أنوار معرفته والهاماته الغيبية عليهم.

المقامات والحالات في التصوف

المقامات والحالات أو الأحوال من المباحث المهمّة في التصوف والسير والسلوك للمتصوفة. فالصوفي والعارف في طريقه للوصول إلى الحق والكمال الحقيقي يجب عليه أن يقطع هذه المقامات، ويكتشف الحالات الباطنية التي حلت فيه وينتفع بها. إذا ماذا نعني بالمقام والحال؟

(١) ر.ك: مصباح الهداية، ص ١٣٠ - ١٣١.

فقد جاء في «كشف المحجوب»: «مقام برفع الميم يعني الإقامة، ومقام بنصب الميم يعني محل الإقامة، وهذا المعنى في لفظ المفاهيم خطأ. ففي اللغة العربية مُقام بضم الميم يعني الاقامة ومكان الاقامة، ومَقام بفتح الميم يعني القيام ولا يعني المكان الذي أقيم فيه، فهو طريق الحق وإعطاء الحق حقه في هذا المقام إلى أن يُدرك كماله...

والمقام من جملة الأعمال، والحال من جملة الأفضال، والمقام من جملة المكاسب والحال من جملة المواهب»...[1].

الصوفية والعرفاء يهتمون غالبا في باب المقامات بهذه الآية: ﴿ما منا إلا له مقام معلوم﴾[2]. وفي ذيل هذه الآية يكتب صاحب كشف المحجوب: «مقام آدم عليه السلام هو التوبة، ومقام نوح عليه السلام الزهد ومقام ابراهيم عليه السلام التسليم ومقام موسى عليه السلام الإنابة ومقام داود عليه السلام الحزن ومقام عيسى عليه السلام الرجاء ومقام يحيى عليه السلام الخوف ومقام محمد صلى الله عليه وآله الذكر. وأن كل واحد منهم في محله أسراراً، لكن في الآخر يعودون مرة أخرى إلى مقامهم الأول[3].

والمقامات جمع مقام، فقد جاء في ترجمة الرسالة القشيرية حول المقام «المقام: ما يتحقق به العبد بمنازلته في الآداب؛ مما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب، ومقاساة تكلف. فمقام كل أحد: موضوع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له وشرطه ان لا يرتقي من مقام الى مقام آخر ما لم يستوف احكام ذلك المقام»[4].

وقال حول الحال: «الحال عند القوم: معنى يرد على القلب في غير تعمد منهم، ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم، في: طرب، أو حزن، أو بسط، أو قبض، أو شوق، أو انزعاج أو هيبة، أو احتياج. فالأحوال: مواهب، والمقامات، مكاسب. والأحوال تأتي من عين الجواد، والمقامات تحصيل ببذل المجهود. وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترف عن حاله»[5].

(١) كشف المحجوب، ص ٢٢٤.
(٢) سورة الصافات ١٦٤.
(٣) كشف المحجوب، ص ٤٨٤، تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، انتشارات بيدار، قم ١٣٧١، ص ٢٣.
(٤) ترجمة رسالة قشيريه، ص ١٢٤.
(٥) نفس المرجع، ص ١٢٥.

وجاء في «مصباح الهداية» لعزالدين محمود كاشاني وقد ترجمها من كتاب «عوارف المعارف» أبو حفص السهروردي ما يلي: المراد من الحال عند الصوفية هو عبارة عن شيء يرد في الغيب وينزل حيناً حيناً من العالم العلوي بقلب السالك. وعندما يتمّ ذلك يقع السالك في الجذبة الإلهية فيؤخذ من المقام الأدنى إلى المقام العلوي. فالمراد من المقام؛ هو مرتبة من مراتب السلوك، تحصل تحت قدم السالك ومحل استقامته ولا تزول. فنسبة الحال إلى الأعلى وهو ليس تحت تصرّف السالك، بل وجود السالك محلّ تصرف الحال. أما المقام فنسبته إلى الأسفل فهو تحت تصرّف السالك. ولهذا السبب قالت الصوفية: «الأحوال مواهبُ والمقامات مكاسب. ومن هنا نشأ إختلاف في وجهات النظر بين شيوخ الصوفية. فيرى البعض أنّ هذا الأمر من المقامات. ويعده البعض الآخر من الأحوال. فجميع المقامات تعدّ ابتداءً حالاً وفي نهايتها مقاماً»...[1].

وخلاصة البحث أن المقام إكتسابي، والسالك يجب عليه بالرياضة والمجاهدة أن يحصل على المقام ويبقى فيه؛ ولأنه أتى بشروطه يجب عليه الإرتقاء إلى مقام آخر. أمّا الحال فهو لمحات غيبية حالة تحدث في قلب السالك وهي مثل البرق تعبُر وليس لها دوام.

وذكر سعدي في الباب الثاني من «كلستان» حول أخلاق الدراويش قصصا لطيفة تحكي عن أحوالهم الصوفية: من بينها أن أحد صلحاء لبنان - الذي عرف عند العرب بمقاماته وكراماته في جامع دمشق - وعندما كان يتوضأ إلى بركة ارتعشت رجله وسقط في الحوض وبمشقة كبيرة - استطاع - الخروج - وعندما أنهى صلاته التفت إليه أحد المصلين: وقال له: حضرة الشيخ لي مسألة لو تسمح بطرحها؟ قال: ما هي؟ قال أتصور ان شيخنا مشى على سطح ماء بحر المغرب، ولم تحصل له رطوبة من الماء في قدمه. فماذا حدث لك اليوم حتى لكدت تهلك من خلال مقدارٍ قليل من الماء كان بالحوض؟ بقيَ الشيخ يفكر قليلاً ورفع رأسه بعد تأمّل، وقال: ألم تسمع سيد العالمين صلى الله عليه وآله يقول: لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ، ولم يقل على الدوام... فهو له وقت آخر يتوجه فيه لحفصة وزينب ولا يتوجه فيه لجبرئيل وميكائيل. وقالت مشايخ الصوفية: مُشاهدة الأبرار بين التجلي والإستئثار.

(١) مصباح الهداية، ص ١٢٥.

أولاً: المقامات

المقامات عند الصوفية سبعة، ذكرها أبو نصر سرّاج من كتاب اللمع وهي عبارة عن: التوبة والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا[١].

١ - التوبة: جاء في الرسالة القُشيرية: قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[٢] قيل: يا رسول الله، وما علامة التوبة؟ قال الندامة... أن النبي ﷺ قال: «ما في شيء أحب إلى الله من توبة تائب... فالتوبة أول منزل من منازل السالكين وأول مقام من مقامات الطالبين. وحقيقة التوبة في لغة العرب: الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود فيه. وقال النبي ﷺ الندم توبة فأرباب الأصول من أهل السنة قالوا: شرط التوبة، حتى تصح، ثلاثة اشياء: الندم على ما عمل من المخالفات. وترك الزلة في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي»[٣].

أكثر الصوفية ترى أن السالك في أوّل خطوة يعني التوبة، يجب أن يتبع طريق شيخ أو ولّي أو مرشد أو دليل وتحت - نظره - يتعلم ويكون مطيعه أطاعة كاملة ويسلم أمره له، ويعتقد به على أنّه قطب ومراد الإنسان الكامل، وأنّه صاحب كرامات ومعجزات. وقالوا: يجب على السالك أن يتوب توبة نصوحة من جميع الأمور المخالفة للشريعة، وأن يتّخذ هذا الأمر أصلٌ فتكون جميع الأعمال مبنية عليه[٤].

وذكروا أن أركان التوبة خمسٌ: الأول أداء الفرائض، والثاني قضاء ما فات، والثالث طلب الحلال، والرابع ردّ المظالم، والخامس مجاهدة أو مخالفة - أهواء - النفس، وبعد رعاية هذه المقامات والأركان: يصبح التائب من الذنب كمن لا ذنب له. وأولئك بدّل الله سيئاتهم حسنات»[٥].

والساحة الأولى في كتاب «صد ميدان از امالى» (مائة ساحة من الأمالي) للشيخ عبد الله الأنصاري هي التوبة: فيقول: «مقام التوبة هو الساحة الأولى، والتوبة هو

(١) غنى قاسم، تاريخ تصوف در اسلام (تاريخ التصوف في انتشارات ابن سينا، سنة ١٣٣٠ هش، ص ٢١٠.
(٢) النور: ٣١.
(٣) ترجمة رسالة قشيرية، ص ١٣٦-١٣٧.
(٤) مرصاد العباد، ص ٢٥٧.
(٥) مرصاد العباد، ص ٢٦٨.

الرجوع إلى الخالق... وأركان التوبة ثلاثة أشياء: الندامة بالقلب، والإعتذار باللسان، والإنقطاع عن السيئات وأصحاب السوء»[١].

وجاء في كتاب «شرح منازل السائرين» للشيخ عبد الله الأنصاري للمؤلف «كمال الدين عبد الرزاق كاشاني»، التوبة هي الباب الثاني من القسم الأول يعني البدايات، والباب الأول هو اليقظة تعني الانتباه[٢].

٢ - الورع: روى عن أبو ذر (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «من حسنات الرجل الابتعاد عما لا ينفعه»[٣]. والورع هو الإحتراز من الشبهات ومثلما قال ابراهيم الأدهم: «الورع هو الإبتعاد عن جميع الشبهات والابتعاد عما لا ينفعك وهو ترك الإضافات.»

يقول شبلي: الورع هو الإحتراز من كلّ شيء ما عدى الخالق[٤].

عندما دخل الحسن البصري مكة رأى غلاما من أبناء الإمام علي عليه السلام ظهره الى الكعبة وكان ينصح الناس. وقف الحسن البصري - تجاهه - وسأله: ما صلاح الدين؟ قال: الورع. - ما هي آفة الدين؟ قال الطمع؟ فبقي الحسن البصري واقفاً متعجباً[٥].

وجاء في «مصباح الأنس»: «الورع هو الإحتراز من كل شيء به انحراف شرعي أو شبهة لها مضار روحية. فهو يتضمن القناعة»[٦]. وقال الشبلي: «الورع على ثلاث أنواع: الأول الورع باللسان وهو السكوت عن كلّ شيء لا معنى له وترك الفُضول، والثاني الورع بالأركان وهو ترك الشهادة والإبتعاد عن المشكوكات والمحرمات. والثالث الورع بالقلب وهو ترك العزم الرديء والأخلاق السيئة.

وقال البعض الآخر: «الورع هو ترك المحظورات والتقوى هي ترك الشبهات[٧].

٣ - الزهد: قال البعض أنّ الزهد يكون في الحرام؛ لأنّ الحلال مباح من قبل الخالق. فهو قد أنعم على عباده بالحلال، وألزمهم أن يقوموا لشكره. فالإحتراز منه

(١) انصارى، عبد الله، صد ميدان أز امالى، تحقيق عبد العزيز سنة ١٣٤١ هش، ص٦.
(٢) شرح منازل السائرين، ص٢١.
(٣) ترجمة رسالة قشيريه، ص ١٦٦.
(٤) نفس المرجع، ص ١٦٦ و ١٦٧.
(٥) نفس المرجع، ص ١٧٠.
(٦) فرهنك مصطلحات عرفاي، ص ٤١٥.
(٧) نفس المرجع، ص ٤١٥.

بالإختيار، لا يجب أن يكون مقدما على تملكه من خلال أداء حقّه. وقال البعض الآخر: الزهد واجب في الحرام، وحلال في الفضيلة»[١].

وقال البعض: ينبغي للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلّف ولا يطلب الفضول ممّا لا يحتاج إليه ويرضى بقسمته. فإذا أعطيَ مالاً حلالاً كان شكوراً وإذا أُعطي بحدّ كفافه لا يسعى إلى طلب ما يزيد عنه. وأفضل عباد الله، الصوفي الصابر بالله الشاكر له نعمه من قبل[٢].

وجاء حول الزهد في الساحة الثالثة عشر من كتاب: «صد ميدان از امالى» لعبد الله الأنصاري: الزهد في ثلاثة أشياء: تذكّر الموت، والقناعة بالقوت، ومحادثة المتصوفة. والزهد في الخلق له ثلاث علامات: رؤية ما يسبق الأحكام، ورؤية استقامة القدر، ورؤية عجز الخلق. والزهد في النفس له ثلاث علامات: درك حيل العفاريت، والشياطين، ودرك ضعف النفس، ودرك ظلمة الإستدراج. فالإستدراج عند المتكلمين هو طلب الرقّي، وعند الكافرين أمراً خارقاً للعادة، وعند المؤمنين كرامة»[٣].

وجاء في «مصباح الهداية»: المراد من الزهد إبعاد الرغبة عن متاع الدنيا واعراض القلب عنها. وهو المقام الثالث بعد التوبة والورع[٤]. وجاء في شرح «منازل السائرين» الزهد هو الباب السادس من القسم الثاني لأبواب والورع هو الباب السابع. وحسب ما جاء في تعريف عبد الله الأنصاري للزهد أنه تَرك وإسقاط الرغبة في كل شيء وبشكل عامٍ، ثم أردف هذا التعريف بشرح مفصل.

٤ - الفقر: الفقر في نظر الصوفية هو من المقامات المهمة القابلة للتوجه. وهو عبارة عن الإحتياج للخالق تبارك، وعدم الإحتياج لمن سواه. وجاء في الآية الشريفة: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾[٥]. ونقلت الصوفية والعرفاء في كتبها حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: الفقر فخري. والفقر فخري وبه أفتخرُ. وقد جاء هذا الحديث على أنه جزء من الأحاديث النبوية في كتاب «سفينة البحار»[٦]. أما مؤلف «اللؤلؤ المرصوع» فهو ينقل عن ابن تيمية أن هذا الحديث جاء في كل كتب الصوفية على أنه حديث نبوي وكانوا يستندون به في مقام الفقر.

(١) ترجمة رسالة قشيريه، ص ١٧٤.
(٢) نفس المرجع، ص ١٧٥ و١١٧٦.
(٣) صد ميدان از امالى، ص ٣١.
(٤) مصباح الهداية، ص ٢٧٣.
(٥) سورة فاطر، الآية ١٦.
(٦) طبعة النجف، ج٢، ص ٣٧٨.

يتحدث الباب الواحد والأربعون من ترجمة الرسالة القشيرية عن الفقر وقيل في هذا الباب: «الصوفي هو شعار الأولياء وحلية الأصفياء، واختيار الحق تبارك وتعالى لخواصه من الأتقياء، والأنبياء عليهم السلام ... والفقراء صفوة الله عز وجل من عباده، ومواضع اسراره بين خلقه، بهم يصون الحق الخلق، وببركاتهم يبسط عليهم الرزق. والفقراء الصُبّر جلساء الله تعالى، يوم القيامة، بذلك ورد الخبر عن النبي ﷺ[١].

وجاء في «مرصاد العباد»: الفقر نصيبي، وأملي في حرماني، ومرادي في يأسي، ووجودي في عدمي، واستطاعتي وفخري، «فالفقر فخري».

... يا رسول الله ما هذا السرّ الذي يجعلك لا تفتخر بأنك أفضل الأنبياء وتفتخر بالفقر. فطريقنا قائم على الحبّ والعشق، فهذا الطريق لا يمكن طيّه بالعدم والأفضلية والزعامة والنبوّة. فكلّها عبارة عن وجودات...[٢].

يجب أن نعلم أن كلمات مثل الفقير والدرويش أو الصوفي والشحاذ تعني كلّها: عدم الإمتلاك وضيق الحال. وفي بعض الأحيان تُستعمل هذه الألفاظ بشكل مترادف. ولكن في الحقيقة يوجد تفاوت في معانيها. بطبيعة الحال الدرويش هي مرادفة للصوفي وسنشير إلى ذلك لاحقاً. أمّا الشحاذ فهو الذي يسأل. وكلمة كِدية وتكدّى هي معربة عن كلمة كذا (غدا)[٣] الفارسية. وجميعها تشير إلى أنّ الفقير الواقعي هو الذي لا يُظهر فقره وهو الذي وصل إلى مقام الفقر وأصبح لا يحتاج إلاّ للخالق.

بطبيعة الحال الدين الإسلامي لا يرى مناسباً أن يكون المسلم فقيرا وخال اليد. فقد جاء في الحديث الشريف: «كاد الفقر أن يكون كفراً»[٤]. فالفقر أخوف من الكفر ونبّهنا الإسلام لذلك. وفي حديث آخر أمرنا فيه رسول الله ﷺ بالبحث عن الرزق وكسب الحلال. فقال: «أطلبوا الرزقَ في خبايا الأرض». وجاء في حديث آخر: «إنّ مفاتيحَ الرزقِ متوجهةٌ نحو العرش فينزل الله تعالى على الناس أرزاقهم على قدرِ نفقاتهم فمن كثّر كثّر له، ومن قلّل قلّل له»[٥].

وجاء في الباب السابع من كتاب «غلستان» سعدي حول «جدال سعدي مع أحد المدعين في مسألة الإستطاعة والصوفي». فذكر الصفات الواقعية للصوفية

(١) ترجمة الرسالة القشيرية، ص ٤٢٥، ٤٦٦.
(٢) مرصاد العباد، ص ١٥٥.
(٣) الشحاذة (المترجم).
(٤) أحاديث مثنوى، ص ٤٥.
(٥) نفس المرجع، ص ١٦٨.

والإستطاعة الحقيقية لهم. وصوّر طرفه المقابل (المدّعي) في ظواهر الصوفي وليس في أفعاله. وأورد قولاً عن المدّعي أنه قال له: ألم تسمع أنّ الرسول الأكرم ﷺ قال: الفقر فخري. فردّ عليه سعدي بقوله: أصمت... فإشارة الرسول الأكرم للفقر، يختص بطائفة، رجالها رضوا بساحة التقدير وسلمّوا بقضائه. ولا يختص بأولئك الذين إرتدوا خرقة الأبرار وباعوا لقمة الأشرار»[1].

٥ - الصبر: الصبر هو المقام الخامس من مقامات التصوف ويعد الصبر علامة صحيفة المؤمن وإستقامته. وجاء أن الرسول سئل ما الإيمان؟ فقال هو الصبر والخُلق الحسن. وجاء كذلك أن الصوفي الصابر جليس الخالق عز وجل يوم القيامة.

لقد أُعطي للصابرين عزّ الدنيا والآخرة؛ لأنهم تمكنّوا أن يكونوا مع الخالق ورفقاء له. مثلما جاء في الآية الشريفة: ﴿إنّ الله مع الصابرين﴾[2]. وقيل في معنى هذه الآية: ﴿إصبروا وصابروا ورابطوا﴾[3]. فالصبر أقل درجة من المُصابرة، والمُصابرة أقلّ درجة من المرابطة[4].

وقيل في معنى هذه الآية: إصبر بجسمك في طاعة الخالق حتى تكون مُصابراً، وإصبر بقلبك على البلاء حتى تكون مُصابراً، وإحفظ نفسك على سرّ الشوق والحبّ بالله حتى تكون مُرابطاً[5].

والصبر أحد قاعدتي الإيمان فمثلما ورد في الحديث: «الإيمان نصفان، نصفٌ صبر ونصف شكر. والصبر ثلاثة أنواع: صبر النفس، وصبر القلب، وصبر الروح. وصبر النفس على نوعين: الصبر عن المُراد، والصبر على المكروه. وصبر القلب كذلك على نوعين: الصبر على المكروه، والصبر عن المُراد. وصبر الروح كذلك على نوعين: الصبر على المكروه، والصبر عن المراد. وكل واحد منهم له شرح خاص منفصل عن الآخر»[6].

ويقول الشيخ حسين كاشفي واعظ، حول الصبر في كتابه «لب لباب مثنوى»: «وبالصبر تُظهر النفس من جميع ألوان الظلمات والكدورات والآمال والأماني، وبتركها

(١) كلستان، ص ،١٧٩
(٢) البقرة: ١٥٣.
(٣) آل عمران: ٢٠٠.
(٤) ترجمه رسالة قشيريه، ص ٢٨٢، ٢٨٧.
(٥) نفس المرجع، ص ٢٨٢.
(٦) مصباح الهداية، ص ٣٧٩.

للتعلقات يخلص القلب... والصبر مثل - الكيمياء - ببركته يُحوّل الوجود النحاسي للسالك بذهب خالص»[1].

٦ - التوكل: التوكل هو المقام السادس. قال الله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهُوَ حسبُهُ﴾[2]. وقال سهل بن عبد الله علامة التوكل ثلاثة أمور: أنّه لا يجب أن يشحذ ولا يردّ ما أُعطيَ له، وإذا أخذ لا يدّخر. وقيل إنّ المقام الأوّل للتوكل أن يكون - الإنسان - بيد الخالق مثل الميّت بيد الغسّال؛ يفعل به ما يُريد. لا يملك - تجاهه - إرادة ولا تدبير ولا حركة. وقالوا كذلك التوكل أمان للفرد بما في خزانة الخالق عز وجلّ. ويأسٌ له بما هو لدى الخلْق. ويقول سهيل بن عبد الله: التوكل في ذات الرسول وفي اتباع سنته. فالذي تأخر عن ذات الرسول لا يجب أن يتأخر عن سنته»[3].

ويختلف نظر الصوفية حول التوكل: فيرى البعض: أن التوكل لا ينافي السعي والجهد والإهتمام بالأسباب. ويرى البعض الآخر: أن التوكل يعني ترك جميع الأسباب وصرف النظر عن التفكير في العمل والكسب، وحتى أنهم يرون أن شُرب الدواء أثناء المرض وعيادة الطبيب هو خلاف - لحقيقة - التوكل. مع هذا فأكثر الصوفية تعتقد بالرأي الأول.

وجاء في الحديث: «أن رجلاً جاء عند رسول الله ﷺ وترك ناقته في الخارج. فسأله رسول الله ﷺ أين تركت ناقتك؟ فقال توكلت على الله وتركها طليقة في الخارج. فقال له رسول الله: إعقلها وتوكل. يعني إربط رجلها - أوّلاً - ثم توكل على الخالق»[4].

الشيخ الرئيس ابن سينا يقول التوكل ثلاث درجات: «التوكل، والتسليم، والتفويض... فالتوكل أوّله والتسليم أوسطه والتفويض آخره». وجاء في مصباح الهداية: «المراد من التوكل هو تفويض الأمر للمدبر الوكيل المُطلق، والإعتماد على كفالة كفيل الأرزاق عمّت نعماؤه وتقدّست أسماؤه»[5].

وتجيز الصوفية الاستفادة من الفتوح. فالفتوح هو الرزق والزاد الذي يصل

(١) سعى علماء الكيمياء في السابق لتغيير عنصر النحاس إلى ذهب (المترجم).
(٢) الطلاق ٣.
(٣) ترجمة رسالة قشيرية، ص٢٤٦.
(٤) فروزانفر، بديع الزمان، شرح مثنوى شريف، انتشارات دانشكاه تهران، ٣ جلد، ١٣٤٦ - ١٣٤٨ هش، ج٢، ص٢٦٤.
(٥) مصباح الهداية، ص ٣٩٦.

للصوفي من الخلق بدون تعب أو منّة. مولانا جلال الدين تعرض في مثنوى[1] لقصة حول الأسد والصيد[2] وطرح من خلالها موضوع التوكل والسعي والجُهد والجبر. واعتبر أنّ الأسد من أصحاب السعي والجهد. والصيد من أصحاب التوكل وترك الأسباب. جلال الدين لا يرى أن التوكل يُنافي السعي والعمل، لأنّ ترك الأسباب وعدم القيام بأيّ عمل أو السعي من أجل القيام بعمل ما، هو جهل - مطلقاً -؛ ولهذا يجب التوكل بالله سبحانه وتعالى مع التوجه للأسباب والعمل. فالتوكل حالة قلبية، والسعي والعمل حركة خارجية، ولا توجد منافات فيما بينها.

أمّا الصيد في قصّة «مثنوي» تختص بأولئك الذين لا يعتقدون بالعمل والسعي والجهد والذين يقولون العمل والسعي والجُهد والحيلة لا توصل إلى شيء، ولها عواقب وخيمة وضرر كثير. من بين ذلك ما سعى إليه فرعون من قتل المواليد الجُدد في بني إسرائيل من أجل القضاء على موسى عليه السلام ولكنّه لم يصل إلى نتيجة. وتربّى موسى في قصر فرعون نفسه[3].

٧ - الرضا: المقام السابع هو مقام الرضا، ويعدّ بعض من صوفية خراسان الرضا من الأحوال، ويرى البعض الآخر أن الرضا من المقامات.

يقول القشيري: «اختلف العراقيون والخرسانيون في الرضا: هل هو من الأحوال، أو من المقامات؟ فأهل خراسان قالوا: الرضا: من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل ومعناه، انه يئول إلى انه مما يتوصل اليه العبد باكتسابه. وأما العراقيون؛ فانهم قالوا: الرضا: من جملة الاحوال، وليس ذلك كسبا للعبد، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال. ويمكن الجمع بين اللسانين، فيقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد، وهي من المقامات، ونهاية من جملة الأحوال، وليست بمكتسبة[4]. واعلم أن العبد لا يمكن أن

(١) مثنوى دفتر أول وشرح مثنوى، فروزانفر، ج٢.
(٢) ما يُصاد. جاء في القرآن: أُحل لكم صيدُ البحر.
(٣) خلاصة قصة الأسد والصيد تتمثل في أن الأسد كان دائماً يهدد بقية الحيوانات بالقتل، فأرادت الحيوانات أن تخلص من هذا التهديد بالقيام بقرعة يومية فالذي تقع عليه القرعة لا بدّ أن يقدّم نفسه للأسد. وبهذه الطريقة يتعهد الأسد على عدم القيام بتهديداته لبقية الحيوانات. فكان الأسد يأكل كل يوم الحيوانات إلى أن وقعت القرعة على الأرنب فاحتال عليه الأرنب بأن جرّ الأسد إلى مكان يوجد به بئر عميقة فوقع الأسد بالبئر واحتفل بقية الحيوانات برحيل الأسد. (المترجم).
(٤) ترجمه رساله قشيريه، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

يرضى عن الله إلاّ إذا كان الله راضٍ عنه. فقد قال عز وجلّ: رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ورَضُوا عَنْه. ويقول ذو النون عليه السلام: من علامة الرضا ثلاث أمور أن يحافظ على الإختيار قبل القضاء ولا يَيْأس ويكسب المحبّة في وقت البلاء[1]. وجاء في «مصباح الهداية» «أنّ مقام الرضا مقام الواصلين وليس منزل السالكين. ومثلما جاء في جواب بشر حافي حول سؤال فُضيل عياض عندما سأله: الرضا أفضل أم الزهد؟ أجاب: الرضّا أفضل، لأنّ الزاهد في الطريق والراضي وصل»[2].

ويقول الشيخ «حسين كاشفي» في «لب لباب مثنوى»: «الرضا محصول المحبّة، والساكن في مقام الرضا تتجلى عنه وسوسات الحسد. فيصل العارف في هذه المرتبة وفي هذا المقام إلى مرحلة الشهود. ويرى أنّ لله عز وجلّ لم يضع شيئاً في موضع الغلط وأعطى لكل شيء حقّه، وبالتالي فهو عن إطاعة - تامة - راضٍ بما له، ولا يعترض بما يعطيه أو يرسله الحق له. وكل ما يحدث في العالم يراه وفقاً لرضا الخالق»[3].

تعرضنا إلى حدّ الآن وشرحنا سبعة مقامات مشهورة عند الصوفية ونشير إلى أن صاحب الهداية[4] يرى أن المقامات عشرة ويضيف على السبعة، المقامات التالية: مقام الخوف، ومقام الشكر، ومقام الرجاء، ويشرح كل واحد منها في باب خاص. ولكن هذه المقامات هي غالباً تُعدّ من ضمن الأحوال.

النقطة الأخرى التي يمكن الإشارة إليها هو أن الشيخ فريد الدين عطار في كتابه «منطق الطير» (أو مقامات الطيور)، ومن خلال تعرضه - الرمزي - إلى سير الطيور السالكين نحو الطائر «سِيمُرْغ»[5] يطرح سبعة مقامات لهذا السير - العرفاني - : مقام الطلب، ومقام العشق، ومقام المعرفة، ومقام الإستغناء، ومقام التوحيد، ومقام الحيرة، ومقام الفقر، ومقام الفناء.

ثانياً: أحوال الصوفيّة

لقد أشرنا في بداية هذا الفصل إلى الحال والأحوال وعرّفنا الحال والمقام وبيّنا

(١) نفس المرجع، ص ٢٩٩.
(٢) مصباح الهداية، ص ٤٠٢.
(٣) لب لباب مثنوى، ص ٢٨٥.
(٤) رك: مصباح الهداية، ص ١٣، فهرست مطالب، شرح آنها ص ٣٦٦ - ٤٠٦.
(٥) طير رمزى وهمى. (المترجم).

الفرق بينهما. وقلنا بشكل عام أنّ الحال هو الدخول إلى الغيبيات، وهو من الكيفيات[1] التي لا تدوم كثيراً. ومثل النور الخاطف يشعّ بنوره لحظة في قلب السالك والصوفي والعارف.

والسالك يتحسس هذا الأمر ويدرك هذا الحال، وينتفع من خلاله. كذلك أشرنا إلى أن المقام هو من الكسبيات، أما الحال فهو ليس كذلك. وهنا نرى أنّه لا يستدعي أن نكرر البحث.

ترى الصوفية أن فهم ودرك الحال والإنتفاع من لحظاته من أهم الواجبات. وأحد الأسباب التي قيلت في حقّ الصوفي بأنه «ابن الوقت» فهو يعرف ويدرك وقت وزمان اي عمل. وبغير أداء الفرائض الواجبة لا يهتمّ بأي عمل آخر إلاّ إذا أخذ وانتفع من حالَه وكيفيته النفسانية التي ولجت - العالم - الغيبي. بعض الصوفية في تعريفيها للوقت قالت: المراد من الوقت هو لذلك الحال الذي يرد على السالك مثل حب الله والتوكل والتسليم والرضا وغيره[2].

الوقت هو ما بين الماضي والمستقبل والصوفي لا يتوجه إلى أي منهما فهو ابن وقته.

ويوجد تعبير آخر للصوفية وللعرفاء حول لحظات يتوجه فيها الحقّ ويحصل فيها الحال، عبروا عنها «بالنفحة» وذلك انطلاقاً من الحديث الشريف: «إنّ لربّكم في أيام دهركم نفحاتٌ إلا فتعرضوا لها»[3].

بعد هذه المقدمة نشير إلى أن الحالات أو الأحوال المشهورة عند الصوفية هي عشرة وحسب ما ذُكرت في كتاب «اللُمَع» عبارة عن: المراقبة، والقرب، والمحبة، والخوف، والرجاء، الشوق، والأنس، والإطمئنان، والمشاهدة، واليقين.

١ - المراقبة: المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه، وهذا اصل كل خير له، ولا يكاد يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة، فإذا حاسب نفسه على ما سلف له، واصلح حاله في الوقت ولازم طريق الحق، واحسن نيته وبين الله تعالى مراعاة القلب وحفظ مع الله تعالى الانفاس، وراقب الله

(١) كيفيات نفسانية. (المترجم).
(٢) فرهنك مصطلحات عرفا، ص ٤١٩.
(٣) البحار، ج٧١، ص٢٢١، رواية ٣٠، باب ٦٦، .

تعالى في عموم أحواله، ويرى أفعاله، ويسمع اقواله، ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الواصلة، فكيف عن حقائق القربة وسئل ابن عطا أي العبادات أفضل، قال: دوام مراقبة الحق على دوام الوقت[1].

٢ - القرب: هو استغراق وجود السالك وقربه من الله سبحانه وتعالى. ومن خلال الإبتعاد عن الصفات النفسانية يتقرب من الله عز وجلّ إلى الحدّ الذي يغيب فيه عن نفسه ويصل إلى الفناء حتى يغيب عنه تقرّب نفسه[2].

ويقول رويم: القرب هو رفع كلّ عاتق وكلّ ما يَحيل المُحبّ عن المحبوب. ويقول القشيري: القرب هو التقرب من الطاعات والإتصاف في كلّ الأوقات بعبادته... وقرب العبد من الحقّ لا يكون إلاّ بإبتعاده عن الخلق. وهو من صفات القلب وليس من أحكام الظاهر. ويتقرب الله سبحانه وتعالى بعلمه وقدرته من جميع - عباده - من الخواص والعوام. ويتقرب بلطفه وتصرفه الخاص في المؤمنين. ويتقرب نحو أولياءه من خلال الأُنس[3].

وجاء في «خلاصة شرح تعرّف»: الأقرب لله أكثرهم طاعةً. والبُعد هو المعصية فالأبعد عن الله أكثرهم معصية.

ويقول الشيخ واعظ كاشفي: في بيان القرب أنه بُعد المسافة وانقطاع المخافة. وقيل - كذلك - القرب هو زوال الحس، واضمحلال النفس. ولا تظنّ أن قرب الحقّ من خلال المكان؛ بل هو ليس من خلال المكان، فذات الخالق سبحانه وتعالى بدون شبهة منزهة عن المكان، والزمان، والجهة، فذاته عز وجلّ مقدسة.

ونقل أحد الصوفية المعروفين حكاية عن ذي النون المصري حيث قال: «رأيتُ خلال طوافي بالكعبة شاباً كان نحيف الجسم أصفر الوجه. فقلت له هل لك معشوق؟ فقال: بلى. فقلت له: معشوقك قريبٌ أم بعيدٌ عنك؟ فقال: قريب منّي. فقلت: هل هو رفيقك، ومُوافقك أم مخالفٌ لك؟ فقال: هو موافق لي. فقلت: سبحان الله! رفيق قريب وموافق وأنت في هذه الصورة وهذا الحال؟ فقال لي: هل تعلم أن عذاب القرب أصعب من عذاب البعد؟»[4].

(١) ترجمه رسالة قشيرية، ص ٢٩٣.
(٢) فرهنك مصطلحات عرفا، ص ٤١٣.
(٣) ترجمه رساله قشيريه، ص ١٢٤ - ١٢٥.
(٤) مصباح الهداية، ص ٤٠٤.

٣ - المحبّة: وهي الحال الثالث من حالات الصوفية ولهم اهتمام وتوجه خاص لهذا الحال. وطبق ما جاء في «مصباح الهداية»: «ومثلما التوبة أساس كل المقامات الشريفة، المحبّة أساس كل الأحوال العالمية»[١]. ويفتتح القشيري باب المحبة بالآية الشريفة: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوفَ يأتي الله بقومٍ يحبّهم ويحبّونه﴾[٢]. ثم يقول: «المحبة في كلام العلماء هي الإرادة. ومراد القوم من المحبة ليس الإرادة لأنّ الإرادة لا تتعلق بالقديم (الله) إلاّ إذا حملناها على إرادة التقرب له جلّ جلاله وتعظيمه و...

أمّا محبة الخالق تبارك وتعالى لعبده هي عبارة عن إرادة نَعَم خاصّة له، كما أنّ الرحمة إرادة نِعَم، فالرحمة أخصّ من الإرادة والمحبّة أخصّ من الرحمة»...[٣].

وذُكرت إشتقاقات عديدة للمحبّة من جملتها أنّها أشتقت من حبَّ وحبّةُ القلب ذلك الذي يكون قَوام القلب به، وسمّي الحبَّ بالحُبّ نسبةً لمحل - القلب[٤] -.

أما ما قيل من أقاويل القُدماء، ما قاله أحدهم: المحبّة ميل دائم لقلبٍ نهض من مكان - خاصّ -[٥].

وقالوا كذلك: «المحبّة عبارة عن نار في القلب، تحرق كلّ ما هو ليس وُفق مُراد المحبوب»[٦]. وقالوا: «المحبة سكر لا يفيق منها السكران إلاّ برؤية المحبوب، وهذا السكر لا يمكن وصفه عندما يصل إلى لحظات المشاهدة والرؤية».

وجاء في خلاصة شرح تعرّف[٧]: «إنّ محبة المخلوق التّي تفرق عن محبة الخالق في ستة مراحل: المرحلة الأولى موافقة الطبع لشيء ما، والمرحلة الثانية الميل، والمرحلة الثالثة الوُدَ، والمرحلة الرابعة يصل إلى المحبّة، والمرحلة الخامسة الولَه؛[٨] وهي تعني الحيرة والتَيْه (تائه)، والمرحلة السادسة الهواء وهو هواء صافٍ بدون كدورات ويشبه الهواء الذي بين الأرض والسماء. ويعني كذلك التخلّي والسَقْط... فهو يُسقط ويتخلى عن جميع الأميال وكل ما لا يتعلّق بحبيبه».

(١) مصباح الهداية، ص ٤٠٤.
(٢) المائدة: ٥٤.
(٣) ترجمة رسالة قشيريه، ص ٥٥٢، ٥٥٤.
(٤) نفس المرجع، ص ٥٥٨.
(٥) نفس المرجع، ص ٥٦٤.
(٦) خلاصة شرح تعرّف، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.
(٧) ولَهَ فلان وَلهاً إشتد حزناً حتى ذهب عقلُه وتحير من شدّة الوَجْد. (المترجم).

أما قول أهل الأصول فمحبّة الخالق للعبد هي إرادة خير ومحبّة العبد للحق تعالى هي - إرادة - طاعة...

وجاء في «كشف المحجوب»: محبة العبد للخالق صفة تظهر في قلب المؤمن المطيع بمعنى التعظيم والتكبير حتى يحصل بها على رضا المحبوب. وفي طلب رؤيته يكون غير صابر، وفي انتظار القُرب منه يكون مضطرب وجزع. وبدونه لا يحس بالإستقرار[١].

قال صاحب كتاب «مصباح الهداية» أنّ للمُحب الصادق علامات وهي بإختصار عبارة عن: أنّ القلب لا يجب أن يحمل محبة تجاه الدنيا والآخرة، ولا يلْتفت لكلّ ما يعرض عليه من حسن وجمال. وأن يُحبَّ ويُطيع طُرق الوصول إلى المحبوب وإذا كان حبُّ ابنه من موانع الوصول للمحبوب فيجب أن يحذر منه. ويجب أن يكون مشغف، ومولع بذكر المحبوب، وأن يُطيعه في جميع الأوامر والنواهي. وأن تكون - ارادته - وكلّ ما يختار في طلب رضا المحبوب. وأن يحتار ويدهش عند مشاهدته لجمال المحبوب وأن لا تبعث رؤية ومشاهدة المحبوب والوصال به نقصان من شوقه - ومحبته»[٢].

وذُكرت كذلك الكثير من هذه العلامات في باب العشق والمعشوق.

وفي الحقيقة المحبة بدايات للعشق الذي له مكان خاص ومهم في الإشراق والعرفان الإشراقي. وسنتناول هذا الأمر بالبحث في موضعه المناسب. لقد خصَ الشيخ عبد الله الأنصاري في الفصل السابع من كتابه منازل السائرين والذي شرحه عبد الرزاق كاشاني. للأحوال. ولكنها تتفاوت عن الأحوال التي ذكرناها. فالبال الأول - عنده - هو المحبّة وطبق ما جاء في كتابه، المحبة أوّل أنهر الفناء والعقبة[٣]، الذي منه يكون السقوط نحو منازل المحو والفناء[٤].

٤ - الخوف: وهو رابع حال من أحوال التصوف فالخوف من الله دائماً في قلب العبد.

يقول القشيري: الخوف معنى متعلقه بالمستقبل، لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه أو يفوته محبوب. ولا يكون هذا إلاّ لشيء يحصل في المستقبل فإمّا ما يكون في الحال موجوداً فالخوف لا يتعلّق به.

(١) كشف المحجوب، ص ٣٩٧.
(٢) مصباح الهداية، ص ٤٠٦ - ٤١٠.
(٣) الطريق الوعر وصعب العبور. (المترجم).
(٤) شرح منازل السائرين، ص ١٦٩.

والخوف من الله سبحانه وتعالى هو ان يخاف أن يعاقبه الله تعالى إمّا في الدنيا، وإمّا في الآخرة[١]. يقول أبو حفص: الخوف سوط ومَقْرعة الخالق، يؤدّب به من نَفَر وجَفَل عنه[٢]. ويقول ذو النون: ما دام الناس يخافون فهم في الطريق. لأنهم اذا - فقدوا - الخوف ضلوا الطريق[٣]. أمّا الخوف من الله سبحانه وتعالى فيكون بعد معرفته ودركه. يقول الغزالي في كتابه «كيمياء السعادة»: يظهر الخوف بعد المعرفة ومن الخوف يظهر الزهد، والصبر، والصدق، والإخلاص، والمواظبة على الذكر، والفكر على الدوام. ومنه يظهر الأنس والمحبّة وهي نهاية المقامات. والرضا، والتفويض، والشوق كلّها تابع للمحبّة، فإذاً تكون كيمياء السعادة بعد المعرفة والخوف[٤].

يقول عزالدين كاشاني في «مصباح الهداية»: الخوف أحد منازل ومقامات طريق الآخرة أعني انزعاج القلب وانسلاخه من طمأنينة الأمن بتوقعه إمكان حصول المكروه. ويُولد الخوف من الإيمان بالغيب وهو على نوعين: خوف الجزاء والعقوبة وخوف المكر. أمّا خوف الجزاء فهو يختص بعوام المؤمنين وعلّته أمران: الإيمان بالوعيد، ومطالعة الجنايات. أمّا خوف المكر فهو يختص بمحبي الصفات التي تتعلق بالصفات الجمالية مثل الرأفة، والرحمة، واللطف، والرضا وما يماثلها.

ويحترز من الصفات الجلالية مثل العقوبة والقهر والسخط... وعلّة هذا الخوف أمرين: محبّة الإله وملاحظة المكر[٥]... ويقول الشيخ حسين كاشفي في لب لباب مثنوى: إعلم أنّ الرجاء حتى يؤدي إلى الطمأنينة يجب أن يكون ممزوجاً بالخوف. والذي لا يملك اليوم الخوف والحون سيكون في الغد محروم من البشارة «لا تخافوا ولا تحزنوا» ويكون لهذا الخطاب وقعٌ للذي يكون خائفاً وحزيناً.

٥ - الرجاء: الرجاء هو الأمل برحمة الله وعفوه. وقد أعطت الصوفية والعرفاء أهمية كبيرة لهذا الموضوع. فالصوفي بعد حال الخوف يصل إلى هذه المرحلة.

فالرجاء من الناحية اللغوية هو تعلّق القلب بحصول حدث مرغوب في المستقبل. جاء في الرسالة القشيرية، قال الله تعالى: ﴿من كان يرجوا لقاء الله فإنّ أجل الله لآتٍ﴾[٦]. الرجاء هو تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل. ومثلما يتعلق الخوف

(١) ترجمه رسالة قشيريه، ص ١٨٩.
(٢) نفس المرجع، ص ١٩٠.
(٣) نفس المرجع، ص ١٩٣.
(٤) كيمياى سعادت، ج٢، ص ٧١٣.
(٥) مصباح الهداية، ص ٣٧٨.
(٦) العنكبوت: ٥.

بالمستقبل، تتعلّق لذّة القلب بالأمل. مع هذا يوجد تفاوت بين الرجاء والتمنّي، فالتمني: «يورث صاحبه الكسل، ولا يسلك طريق الجهد والجد، وبعكسه صاحب الرجاء، فالرجاء محمود، والتمني معلول. وقالوا: الرجاء فرح القلب بالوُعود الخيّرة، والنظر بوسْع إلى رحمة الله.

يقول يحيى بن معاذ: أحلى العطايا في قلبي هو رجاؤك، وأحسن الكلام في لساني هو ثناؤك، وأحبّ الأوقات عندي هو رؤيتك»[١]. وأعتبر مؤلف مصباح الهداية الرجاء من ضمن المقامات وقال: «معنى الرجاء هو إرتياح القلب بملاحظة كرم المرجّو. وإثبات هذا المقام يكون بعد مقام الخوف من ناحية أنّ ترويح الرجاء يكون بعد تبريح الخوف»[٢]. الخوف والرجاء عبارة عن قدميَ سالك الطريق بهما يقطع المنازل والمراحل. بعض الأحيان بواسطة قدم الخوف يعبر من المهالك والفترة»[٣]. وبعض: الأحيان بواسطة قدم الرجاء ينجو من ورطات اليأس والقنوط[٤].

٦ - الشوق: الشوق يحصل للعارف والصوفي بعد المحبة. يقول القشيري: «الشوق لهيب نشأ بين أثناء الحس يسنح عن الفرقة، فإذا وقع اللقاء طفىء، وإذا كان الغالب على الأسرار مشاهدة المحبوب لم يطرقها الشوق... سمعت الاستاذ أبا علي الدقاق يفرق بين الشوق والاشتياق، ويقول: الشوق يسكن باللقاء والرؤية، والاشتياق لا يزول باللقاء وفي معناه أنشدوا:

ما يرجع الطرق عنه عند رؤيته حتى يعود إليه الطرف مشتاقا[٥]

ويقول نصر آبادي: جميع الخلق في مقام الشوق ولا أحد في مقام الإشتياق. والذي يصير في حال الإشتياق ينتهي به الأمر أن لا يبقى منه أثراً ولا إستقرار[٦]. وجاء في مصباح الهداية: «المُراد من الشوق هِيام داعية لقاء المحبوب في نفس المحب، فوُجوده يلزم صدق المحبّة... وحال الشوق طريق يُوصِل «قاصد كعبة المُراد» إلى مقصده ومقصوده. وإستمرار الشوق يكون متصلاً بإستمرار المحبّة وما دامت المحبّة باقية يكون الشوق لازم لذلك»[٧].

(١) ترجمة رسالة قشيريه، ص ٢٢٣ - ٢٢٥.
(٢) مصباح الهداية، ص ٣٩٢.
(٣) الضعف والإنكسار. (المترجم).
(٤) نفس المرجع، ص ٣٩٥.
(٥) ترجمة رسالة قشيريه، ص ٤٥٩.
(٦) نفس المرجع، ص ٥٧٥.
(٧) مصباح الهداية، ص ٤٢١.

ويقول الشيخ عبد الله: «نار ترتفع شعلة شعاعها من نيران المحبّة. وتحرك رائحة العود والجود من إحتراق صورة إفتراقه. فالشوق يُزيل قاعدة الإنتظار ويُقْلقُ العاشق وهو علّة الطلب على أن الطلب لا علّة له. والشوق هو المُرشد إلى طريق المحبّة وهو منبعها الذي يجعل نهر المحبة يغلي ويفور إلى أن يعلو صياح وصراخ العاشق»[1].

٧ - الأنس: الأنس حالة تبرز بعد الشوق في قلب السالك والعارف. جاء في «مصباح الهداية»: الأنس عبارة عن إلتذاذ الباطن بالنظر إلى كمال جمال المحبوب. وذكر في الكتاب الأنس مع الهيبة. فقد قال حول الهيبة: «الهيبة عبارة عن إنطواء الباطن بالنظر إلى كمال جمال المحبوب. فيكون منشأ الأنس والهيبة جمال وجلال الصفات، التي هي منشأ القلب.

ومن علامات أهل الأنس أنهم يستوحشون من غير محبوبهم ومأنوسهم. حتى أنهم يستوحشون من نفوسهم... والعلامة الأخرى أنهم يأنسون بالمحبوب حتّى أنّ أكثر أوقاتهم تنقضي وهم مستغرقون في تدبّره، وتذكّره، وغائبون عن رؤية «الأغيار»[2]... والعلامة الأخرى هو إستمرار الحديث مع المحبوب، فهذه العلامة مشتركة بين أنس الروح والقلب... والعلامة الأخرى أنه على الظاهر أنّ تعظيم المحبوب في نظر السالك أكثر، فهي كذلك مشتركة بين الروح والقلب. وفي درجة أقلّ من مرتبة أنس الذات والصفات مرتبة أخرى في الأنس يطلق عليها أنس بطاعة المحبوب، مثل الأنس بالصلاة والتلاوة والذكر اللساني. فهذا الأنس هو مرتبة العبّاد. والأنس بالصفات مرتبة السالكين، والأنس بالذات مرتبة الواصلين»[3]. وقد تناول القشيري في باب شرح الألفاظ بالبحث - مفهوم - الهيبة والأنس وقال: «الهيبة والأنس أفضل من القبض والبسط، مثلما هو القبض أفضل من درجة الخوف، والبسط أفضل من منزلة الرجاء، والهيبة أفضل من القبض والأنس أتمّ - وأكمل - من البسط»...[4] وقالوا: الهيبة درجة العرفاء والأنس درجة المريدين.

٨ - الإطمئنان: الحال الثامن من أحوال الصوفية هو الإطمئنان. في القرآن الكريم آيات عديدة تحدثت عن إطمئنان القلب من جملتها: ﴿الذين آمنوا وتطمئن

(١) فرهنك مصطلحات عرفاء، ص ٣٩.
(٢) جمع غير، (المترجم).
(٣) مصباح الهداية، ص ٤٢١.
(٤) ترجمة رساله قشيريه، ص ٩٧.

قلوبهم بذكر الله. إلا بذكر الله تطمئن القلُوب﴾[1]. يقول أبو نصر سراج في كتاب اللّمع: «الإطمئنان ثلاثة أقسام: الأول: إطمئنان العامّة؛ فلأنهم منشغلون بذكر الله، يحصل لهم إطمئنان من أنّ الله سبحانه وتعالى سيستجيب دعائهم ويُلبّي حاجاتهم: فهؤلاء الأشخاص لهم نفس مطمئنة، يعني مطمئنة بالإيمان والإعتقاد، والثاني إطمئنان الخواص؛ فهم يرضون بقضاء الله، ويصبرون على البلاء؛ فهم في حال الإخلاص وسكوت الخاطر والإعتماد - الدائم - .

والقسم الثالث اطمئنان أخص الخواص؛ الذين تاهوا في نهر الحيرة فهم مبهوتون في مقام الألوهية بعظمة وهيبة الخالق.

تأكدوا من أنّ الخالق غير قابل للدرك، فقلوبهم لا تسكن وفي عطش التمني استقروا. ويقولون: ربّ زدني تحيُّراً. وهذا هو حال الحيرة والهيام الذي يجرّ إلى المشاهدة الذي هو الحال التاسع من الأحوال»[2].

رأينا في الآية الشريفة أنه جاء فيها: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾... إذاً ذكر الله وتذكر الخالق من الأعمال التي إهتمّت واعتقدت بها الصوفية والعرفاء والعبّاد والزهّاد. يقول الغزالي في «كيمياء السعادة»: إعلم أنّ المقصود ولباب جميع العبادات هو ذكر الحقّ تعالى. فالصلاة عماد المسلم والمقصود منها ذكر الحقّ تعالى. ومثلما قال الله تعالى: إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكرُ الله أكبرُ. وقراءة القرآن أفضل العبادات... ولهذا قال: فاذكروني أذكُركُم[3].

وقد بيّنوا للذكر شروط ومراتب. وبشكل عام يتوجه ذكر الصوفي والعارف والسالك دائماً نحو الخالق. فالذكر يُطَمِئْن السالك ويخلق فيه اليقين ويؤهلّه للمشاهدة. وقُسّم الذكر بالجلّي والخفّي. كذلك أعتبر فيه ثلاث مراتب: عام وخاص وأخصّ. فالأول طرد الغفلة وبطردها يكون السالك من أهل الذكر. والثاني حذف التميّز والتعقل، فيتوجه الذاكر بجميع جوارحه نحو الخالق. والثالث فناء الذاكر، فيفنَي من نفسه ويبقى بالخالق.

بشكل عام، الذكر هو الإشتغال بالحق، بشرط نسيان ما سوى الخالق «واذكر ربك إذا نَسَيْتَ».

(١) سورة الرعد، آية ٢٨.
(٢) تاريخ تصوف در اسلام، ص ٣٥٥.
(٣) كيميا السعادة.

٩ - المشاهدة: بصورة مختصرة المشاهدة في اصطلاحات التصوف والعرفان هو رؤية الحق تعالى ببصيرة القلب. وذلك بعد طي المقامات ودرك كيفيات الأحوال. ففي حال المشاهدة تَحْدُث حالات للصوفي والعارف يعبر عنها بالاشراق، والجذبة، والفنا، وبدون اختيار[١].

إنّ الصوفي والعارف من خلال كسبه للمقامات وحصوله على الحالات ومن خلال تزكية النفس، وتصفية الباطن تضاء بصيرته بنور الحق وتشعشعات أنوار الحقيقة المعنوية والغيبية، ويشرق الفؤاد بذلك النور.

قال الإمام علّي عليه السلام في جوابه على الذين سألوه هل ترى الله؟ قال: «لا أعبد ربا لم أره»[٢].

الكثير من العرفاء فسّروا المشكاة في «سورة النور» بأنّها قلب العارف المؤمن الذي يتحرك في هذا النور. قال الله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نور كمشكوةٍ فيها مصباحُ المصباح في زجاجةٍ كأنّها كوكب دريٌّ﴾[٣]. وجاء في لب لباب ملا حسين كاشفي: «بيان المقامات التي تظهر في الآخر على السالك هو بيان مراتب الأشياء ولهذا السبب أطلق عليهم بالحقايق». ثم تعرض الكاتب الى تفسير المشاهدة والشهود احاطة الحق بذاته بكل شيء «أَوَلَم يكفِ بربكَ فإنه شاهد بصورة مستمرة الأنوار الغيبيّة والآثار العينية. وهذا لا يصل له إلاّ صرِف[٤] القلب والنفس لا كُنه الماء والتراب[٥].

العارف يرى الله في جميع الأمور فهو يجب أن يكون كذلك وهذا يعني أنّه وَصَل إلى مكان لا يرى فيه غير الخالق. يرى الهجويرى في «كشف المحجوب» أن المشاهدة على نوعين أحدهما من صحة اليقين والآخر من غلبة المحبة. فالحبيب في محلّ المحبّة وصل إلى مرتبة أصبح كل وجوده فيها فقط حديث الحبيب ولا يرى أحد سواه(١٥٦).

١٠ - اليقين: بعد أن وصل السالك إلى مقام المشاهدة ورأى الخالق ببصيرة قلبه

(١) لب لباب مثوى، ص٣٣١- ٣٣٢.
(٢) البحار ج ٤ ص ٢٧ رواية باب ٥.
(٣) النور: ٣٥.
(٤) للصرف معاني كثيرة من بينها أنّ الصرف لا يخضع لا للوجود ولا للعدم ولا للجهة ولا للكم، ولا لكيف ولا للغيرية و... (المترجم).
(٥) تاريخ تصوف در اسلام، ص ٣٦٤.
(٦) كشف المحجوب، ص ٤٢٧.

وضاء نورُه عز وجلّ في فؤاده وفني عن نفسه وبقيَ في الحق، وتحرّر من جميع ألوان التعلقات، وإجتنب جميع التعينات يصل حينئذٍ إلى اليقين.

يقول القشيري: «اليقين هو العلم الإلهي المستودع في القلوب وهذا المطلب إشارة إلى أنّ اليقين ليس مُكتسَب»[١]. اليقين في اللغة علم لا يعتريه الشك. وعند العرفاء عبارة عن رؤية العيان بقوّة الإيمان ولا بحجّة البرهان. وجاءت نفس العبارة في تعريفات الجرجاني: «اليقين في اللّغة العلم الذي لا شكّ معه... وعند أهل الحقيقة رؤية العيان بقوّة الإيمان لا بالحجة والبرهان»[٢]. ولليقين ثلاث مراتب: علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين. وجاء في «كشف المحجوب للهجويرى»: علم اليقين هو علم المعاملات الدنيوية بالأحكام والأوامر. وعين اليقين هو العلم بحال انتزاع[٣] - الروح - ووقت الخروج من الدنيا. وحق اليقين هو العلم بإنكشاف الرؤية في الجنّة. اذا علم اليقين درجة العلماء. وعين اليقين مقام العرفاء، وحقّ اليقين ساحة فناء الأحبّة. لهذا يكون علم اليقين بالمجاهدة، وعين اليقين بالمؤانسة، وحقّ اليقين بالمشاهدة. فالأول عام، والثاني خاص، والثالث خاص الخاص[٤]. ويقول الشبلي: «علم اليقين هو ذلك الذي وصل لنا عن طريق كلام الأنبياء عليهم السلام وعين اليقين هو الذي أوصله الله لنا بدون واسطة عبر نور الهداية بأسرار القلوب. وحقّ اليقين لا يتضمن اي طريق»[٥].

ويقول الشيخ حسين كاشفي: اليقين هو الإستغناء بالإستدراك عن الإستدلال والإستغناء بالعيان عن البيان. وقالوا اليقين هو خَرْق حجاب العلم وبلا شك - فالعلم - نتيجة الظنّ والخيال. أمّا غاية اليقين فهي إلى جانب الشهود.

ويرى مولانا المولوي: أن الخيال والشك والأفكار المختلفة تقطع طريق اليقين وتنشأ من هذا الباب كذلك الإختلافات بين الناس والمذاهب والمناهج[٦].

والآن بعد أن أنهينا شرحنا لعشرة أبواب من الأحوال المعروفة عند أكثر الصوفية والعرفاء، لا بدّ من الإشارة إلى بعض النقاط التالية:

١ - أولها إنّ جميع الصوفية وسالكي طريق الحقّ لا يتفقون النظر فيما يخص الأحوال العشرة. فقد جاءت مختلفة في كُتبهم. ففي كتاب «مصباح الهداية» عرض -

(١) ترجمة رسالة قشيريه، ص ٢٧١.
(٢) تاريخ تصوف در اسلام، حاشية ٢، ص ٤٠٥.
(٣) حال الإحتضار. (المترجم).
(٤) كشف المحجوب، ص ٢٩٧، و٢٩٨.
(٥) تاريخ تصوف در اسلام، ص ٤٠٨.
(٦) لب لباب مثوى، ص ٣٤٠.

المؤلف - الأحوال في عشرة فصول وهي عبارة عن: المحبّة، والغيرة، والحياء، والقبض، والبسط، والإتصال، والشوق، والقرب، والأنس، والهيبة، والفناء، والبقاء، والخاتمة، والوصية[1]. وهذه العشرة أحوال كانت خاتمة لذلك الكتاب. والبعض منها مشترك مع بقية آثار الصوفية الأخرى.

٢ - النقطة الثانية إنّ الصوفية ذكرت أحوال أخرى في طريق التصوف والعرفان وهي غير الأحوال العشر التي ذكرناها. ومثلما جاء في الباب «شرح الألفاظ» للقشيري أن القَبض والبسْط حالان يأتيَان بعد الخوف والرجاء. والقبض للعارف مثل الخوف للمبتدي، والبَسْط للعارف بمنزلة الرجاء للمبتدى[2].

٣ - وبعد الهيبة والأنس يأتي التواجد والوَجْد والوجود. وبعده الجمع، والتفرقة، والفناء، والغيبة، والحضور، والصَحْو، والسُكر، والذوق، والشرب، والمحو، والإثبات، والستْر، والتجلّي، والمحاظرة، والمكاشفة، واللوايح، واللوامع، والتلوين، والتمكين. فالأول صفة أرباب الأحوال والثاني صفة أصحاب الحقائق، والبقية خواطر، وواردات، وشاهد، ونفس، وروح، وسرّ، ولكلّ واحد منهما شرح - خاص به[3].

٤ - أمّا في كتاب التصفية في أحوال المتصوفة لمؤلفه قطب الدين أبو المظفر بن اردشير العبادي (وفات ٥٤٧ هق) الصوفي والواعظ المعروف؛ فقد عدّ الكثير من المقامات والأحوال من ضمن أعمال المُبتدين والأوْسطين والمُنتهين[4].

فالتوبة، والزهد، والخوف، والرجاء، الصبر - خاصّة - بالقسم الأول. والشكر، والرضا، والورع خاصّة بالقسم الثاني. والتوكل، واليقين، ضمن القسم الثالث؛ يعني أعمال المُنتهين. أمّا المراقبة فقد عدّها من أحوال الظاهر؛ وعدّ المحبّة والمشهدة من أحوال المشاهدة.

(١) مصباح الهداية، فهرس الكتاب، ص ١٣ وشرحها، ص ٣٠٤ - ٤٣٢.
(٢) ترجمة رساله قشيريه، ص ٩٤.
(٣) نفس المرجع، ص ٨٧، ١٣٧.
(٤) التصفية في أحوال المتصوفة، ص ٨ - ٩.

القصص الرمزية في فلسفة ابن سينا

تأليف: حسين كُدازكر
ترجمة: محمد زراقط

المؤلف

المحجة إبن سينا: حياته وفلسفته.

ولد ابن سينا الذي هو من أكابر العلماء في الفترة الإسلامية، لثلاث خلون من صفر لعام ٣٧٠ هـ، في أفشنه من قرى بخارى، وتوفي في همدان في أوّل جمعة من شهر رمضان لعام ٤٢٨[1]. ولحسن الحظ، فإننا نملك اطّلاعاً كافياً على حياة فيلسوفنا ببركة ما كتبه هو وأكمله تلميذه المشهور أبو عبيد الجوزجاني. وكل من كتب عن ابن سينا من معاصريه، أو ممن أتى بعده اعتمد على هذه السيرة (شبه الذاتية).

ولا نهدف في هذه المقالة إلى دراسة حياة ابن سينا، أو دراسة أوضاع عصره. إلا أنه يستوقف المتابعَ لحياة ابن سينا ميلُه نحو فلسفة الإشراق في أواخر حياته، واهتمامه بالعرفان والتصوف اللذين يعدان من أبرز أصول هذه الفلسفة، وركائزها، رغم منهجه العقلي، وإحاطته بأفكار أرسطو وشرحه لها.

وهناك اختلاف بين العلماء المعاصرين حول علاقة الشيخ الرئيس بالفلسفة؛ حيث يعتبره المرحوم السيد نصر الله تقوي في مقدمته على «الإشارات والتنبيهات» صوفياً ناشطاً، وصاحب مقام عرفاني، سامٍ[2].

ويَعدُّه الدكتور السيد حسين نصر، أكبر الفلاسفة المشائين: حيث يقول في كتابه «آراء المفكرين المسلمين حول الطبيعة»: «... لا شك أن ابن سينا من أكبر الحكماء المشائين، فقد شرح رؤية المشائين للطبيعة في كتاباته ببسط وتفصيل خاصين. ومضافاً إلى ذلك، فإنه يمكن ملاحظة نمط آخر لنظرته حول الطبيعة في رسائله: «حي بن يقظان»، «رسالة الطير»، «وسلامان وأبسال»، فهو يؤمن في هذه الكتب بمراتب للطبيعة

(١) سعيد نفيسي، پورسينا (ابن سينا)، طهران، ١٣٣٣ هـ.ش ص ٢.
(٢) نصر الله تقوي، في مقدمته على «الإشارات والتنبيهات»، طهران ١٣١٦ هـ.ش.، ص ٤١.